زيد الشهيد
الليل في عليائه
رواية
أهل المدينة
طباعة - نشر - توزيع

الليلُ في عَليائِه

الكتاب: الليلُ في عَليائِه

المؤلف: زيد الشهيد

الطبعة الاولى: ٢٠١٩

تصميم الغلاف والإخراج الفني: دار أمل الجديدة

ISBN: 978-9933-603-98-4

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق – بغداد ٨ لسنة ٢٠١٩

سورية –دمشق

جوال ٠٠٩٦٣٩٣٢٤٧٢٠٩٦–٠٠٩٦٣٩٣٢٠٠٢١٢٦–

هاتف: ٠٠٩٦٣١١٢٧٧٢٤٢٩٢

E-mail:ammarkordia@yahoo.com

حقوق الطبع محفوظة: لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزين مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأي طريقة سواء كانت (الكترونية) أو (ميكانيكية) أو بالتصوير، أو بالتسجيل أو بخلاف ذلك، إلا بموافقة كتابية من المؤلف أو الناشر.

All rights reserved, Not part of this publication may be reproduced stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means, Electronics, mechanical photocopying, recording of otherwise, without prior permission in writing of the publisher

زيد الشهيد

الليلُ في عَليائِه

رواية

على الفنانِ أنْ يكونَ رائِعاً ونَبيلاً،

لأنَّ مَن يُعجَبُ بالجَّمال

لا يَجب أنْ يَفتقرَ إليه.

فرناندو بيسوا

الليلُ في روايات زيد الشهيد

د. صالح الرزوق

يُقدِّم لنا زيد الشهيد في رباعيته (الليل في نعمائِه)، و(الليل في علياءِه)، و(الليل في بهائِه)، و(الليلُ في نقائه)*، أربعَ دوائرَ مُتداخلة، كلُّها تعودُ بذاكرتِنا الأدبية إلى الماضي. و إذا كان يَصعُب تلخيصَ أحداثِ أربع رواياتٍ مُتقاطعةٍ ومُنفصلةٍ، يمكن الإشارةُ إلى همِّها العام. وهو عاطفةُ الحبِّ العَفيف، أو الحبِّ المَقموع. ففي كلِّ روايةٍ قصةُ غَرامٍ ضِمن حِبكةٍ بسيطةٍ مع أقل عددٍ مُمكنٍ من الشخصيات، جَرياً على تقاليدِ فرانسواز ساغان في مُعظمِ أعمالِها الصَّغيرةِ ومنها (سحابات رائعة) و(صباحُ الخير أيها الحزن) و(الوداع مُجدداً) وغيرها.... ولكنَّ الشَّهيدَ يعارضُ الحبَّ المُدنَّس. ويكتفي بمتابعةِ مَشاكلِنا الاجتماعيةِ، التي تَطالُ جيلَ الأبناءِ، مِن المثلثِ الأوديبي. فالنساءُ هُنا عذراواتٌ ومُحبّاتٌ بالسِّر، والرجالُ عُشّاقٌ مُتحفِّظون لا يذيعون تفاصيلَ حياتِهم العاطفية، أو أنَّهم غافلونَ عَن مَبدأ الرَّغبةِ. بمعنى أنَّهم ضحايا لِمشكلةِ التَّصعيد الفرويدي، ويستهلكونَ حياتَهم بالانكفاءِ على الذات والتفكيرِ بمَشاكلٍ روتينيةٍ ساذجةٍ،

منها المَلبَس والمأكل، ونادراً ما يفكّرونَ بالمأوى. ويَهتمُّ أبطالُ الشَّهيد كثيراً بالمنغّصات (العوائق بلغةِ الناقدِ الروسي بروب) ومعنى الاستسلامِ للقدرِ الغاشمِ الذي تَقول عنه شهرزاد هادمُ اللَّذات ومُفرِّقُ الجماعات. والواقعُ إنَّه بين هذه الثلاثية وشهرزاد أكثرُ من وَشيجةٍ وصِلةِ قرابةٍ. فحكاياتُها تتطوَّرُ في الليلِ، وهو التوقيتُ الذي اختارُه زيد الشهيد لرباعيتِه. وهذا واضحٌ مِن العِنوان. ولكن لا تتوقَّفُ الصِّلةُ عندَ العناوين، وإنَّما هناك أيضاً علاقةٌ في المَنطقِ أو البُنية.. كانت شهرزادُ تسلّي المَلكَ الجائرَ بمجموعةٍ من القصصِ المتواليةِ، وتسمحُ لكلِّ قِصَّةٍ أنْ تتفرَّع فجأةً دونَ تَمهيدٍ، وأحياناً تحتلُّ القِصَّةُ الفرعيةُ مَساحةً أكبرَ مِن الأساسية. وقد اتَّبعَ زيد الشهيد هذا الأسلوب دونَ تردِّدٍ (مثلاً حكايةُ "حَمامة" معشوقة "حَزين") ولكنْ لغايةٍ مُختلفةٍ.

فشهرزادُ تهدفُ لجذبِ انتباهِ الملكِ بالتشويقِ والغرائب. في حين استعملَ الشَّهيد هذه الحيلة للتعريفِ بماضي الشخصيات (فحكايةُ حَمامة تبدأ قبلَ الأحداثِ بخمسةَ عشرَ عاماً – ص ٢٦). وأعتقد أنَّ التذكُّر واحدةٌ مِن أهمَّ وسائط السَّرد في أعمالِ الشهيد. ويقولُ بهذا المعنى عَلناً: "الذِّكرى بقَدرِ ما هي لذيذةٌ حينَ تتسلَّلُ من دهاليز الذاكرةِ وتدخلُ بستانَ الوَعي فإنَّها بلا شك تثيرُ الشّجونَ وتقضُّ

مضاجعَ الهجوع". ص ٣٣. وقد أدّى ذلك لأنْ تنقسم رواياته على نفسِها. فقد كانت الحكاياتُ الفرعيةُ بضميرِ المُتكلم وبصيغةِ حوارٍ، بينما حكاياتُه الأساسية بضميرِ الغائبِ وبأسلوبِ الوصفِ والمتابعة. وهذا لم يَكن ليعفيه من التدخُّل ومِن رفعِ صوتِه الداخلي بتعليقاتٍ ومداخلاتٍ طويلةٍ نسبياً، وبلغةٍ يُمكن أنْ تقول إنّها لغةُ مُثقَّفٍ أو ناقدٍ أدبي. وأُشيرُ هُنا لمداخلاتِه المُسهَبة عن الفنِّ الانطباعي ص ٥٢، وعَن الرومنسية في الأدب ص ٦٢، وعن الحكمةِ المرجوَّةِ من التحليلِ النفسي. هذا إذا تناسينا تحليلَه المُطولَ لسيرةِ حياةِ أخماتوفا وشعريتِها وعلاقتِها المُلتبسة مع الدولة السوفييتية. لقد أسقطَ ذلك على السَّرد، وأكاد أقول إنّه أضافَه، أو أقحَمه عِنوةً. وهذا شيءٌ معروفٌ في البدايات. فقد كانَ صوتُ الراوي يرتفع في أعمالِنا الأدبية القديمة لإلقاءِ موعظةٍ أو لتعليمِنا درساً في الأخلاق (وأذكّر هنا بمونولوجات شَكيب الجابري في رواياته المُبكِّرة "قوس قزح" و"نهم"" و"قدر يلهو"، فهو يلقي علينا دروساً طويلةً عن أهميّةِ العفَّةِ ودورِ الحَضارةِ الروحيةِ لأهلِ المَشرقِ ودائماً – أو غالباً، مِن وراء حدودِ القِصَّة، يعني من خارجِ ضَرورات البناءِ الفنّي، وكلامِه لم يَكن يضيف شيئاً لمعلوماتِنا عن الشخصيات).

ولكنْ في حالةِ زيد الشهيد لا توجَدُ دروسٌ تربويةٌ، إنَّما

مُجـرَّدُ أفكـارٍ عـن الموسـيقا والرَّسـم واتجاهـاتِ الأدبِ كالشِّـعرِ وخلافِـه. وهـذا فـرقٌ هـامٌّ. نعـم، إنَّـه إسـقاطٌ أو استطرادٌ ويلقي عِبءً إضافياً على الأحداثِ، لكنَه لا يَحمل عَصا ليضربنا بها.. كان شكيب الجابري يُعذِّب شخصياتَه بصـوتِ ضـميرِه الشَّخصـي، ليـذكِّرَهم بعاقبـةِ الحريّـةِ دونَ مَسـؤوليةٍ، وأنَّهـم ليسـوا في إجـازةٍ ولكـنْ لـديهم واجـبٌ. أمَّـا الشـهيد فقـد كـانَ يسترسـل موضـوعياً، ولم يفـرض رأيَـه علينا، ولكن أعربَ عنه من خلالِ شخصياته فقط. وأعتقد أنَّـه لا يسـعنا أنْ ندينـه علـى ذلـك. فشخصـياتُه هـيَ مـن فِئَـةِ البورجوازيةِ الصغيرة. يعـني مُتعلمـةً إن لم تكُـن مُثقفـة. ويحـقُّ لها أنْ تُدلي برأيها. وقد عَمدَ لمثل هذا الأسلوب علي بدر في مُعظـمِ أعمالِـه المتوسـطة والأخـيرة. وروايتـه (الـركض مـع الـذئاب) ثم (أساتذة الوهم) مثقلتان بأفكـارٍ وتهويمـاتٍ عـن الثقافـةِ ودورِهـا في الـوعي وتنميـةِ الحـواس، ناهيـكَ عـن تحلـيلاتٍ رفيعـةِ المسـتوى للواقعيـةِ في الأدب وعلاقتِهـا بالماركسية.

إنَّما لا بدَّ من تسجيلِ نقطةِ نِظام.

هذا الأسلوبُ يؤخِّرُ مِن فُنونِ القولِ ويعمَدُ لتعويمِ الوصفِ، ويكشـفُ مرجعيـاتِ الكاتـب، الـتي يُستحسَـن تغليفِهـا وتعليبهـا بـأدواتٍ غـير مباشـرةٍ (بتعـبيرِ الناقـد الأدبـي حمـزة

عليوي). فالروايةُ يَجبُ أنْ لا تتعدَّى قوانينَ السَّردِ والسَّردِ فقط (بتعبيرِه أيضاً). لكنْ كان علي بدر يُعرب عن حقيقةِ رواياتِه. بتعبيرٍ آخر كلامُه لم يخرج عن فنيّة العملِ الذي أمامَنا كأنَّه يكتبُ عن الدوافعَ وآلياتِ الحِبكة ولماذا اختارَ لرواياته هذا الأسلوب دونَ غيره.

أما الشَّهيد فقد راوحَ بين تقنيةِ الأصوات وحديثِ النفس. لقد كانت شخصياتُه مُتردِّدة في رأيها مثلما هي مترددة في حياتِها واختيار نهايةٍ لقصص الغرام الذي تورَّطت به. وكان يحدوهُ المفارقةُ أكثر من المتابعة. وبلغةٍ أوضح، لقد اختارَ أنْ ينفصل عن موضوعِه، وفرضَ السفر في (الليل في نعمائه) على حزين (بطل الرواية). وفرض على نبيلة بطلة (الليل في علیائه) العودةَ إلى مَسقط رأسِها، ولم يُقدِّم تبريراً. لماذا يَفصل بين العاشقين مع أنَّ كلَّ الظروف مواتية للمّ الشَّمل؟. هل كانَ يَهرب من نقطةِ المُصالحة، ويرى أنَّه لم يئِن أوانُها، ولا تزال معركتُنا مستمرةً مع الطبيعةِ الموحشةِ (وهي هنا الليل- بعفاريتِه ولونِه الأسود ومَخاطره) ص ١٢٩. أعتقد أنَّه أرادَ تمريرَ هذه الرسالة، ولا سيما أنَّه توجد نقطةٌ بنيويةٌ في تكوين هذه الشخصيات، وأقصد بذلك أنَّه لدينا حالةُ كَعبِ آخيل، أو جزءٌ مكشوفٌ من أبطالِ الرواية في علاقاتِهم مع أنفسِهم وواقعِهم. فمع أنَّهم مِن المثقفين هم لا

يدينون للأنتلجنسيا بأيةِ صِلة. وبالعكس هُم جزءٌ من نظامِ العَمالة اليدوية. ومرتبطونَ بظرفِ الصِّراع مع الواقع بدافعِ البقاء وليسَ بدافعِ التطوّر. إنَّهم شخصياتٌ يسعدهم الاحتفاظ بالمكاسبَ التي باليد، ولا يفكّرونَ بتوسيعِ رُقعةِ هذه المكاسب. وهذه أقوى علاقة يمكن أنْ تربط هذه الرواية بحقيقةِ شهرزاد. لقد كانت تكافح بحكاياتِها ضدَّ الليل، وقانونِ الحاكمِ الجائرِ، لتبقى على قَيدِ الحياة.

❖ صدر الجزء الأول عن دار الأمل الجديدة بدمشق عام ٢٠١٦. ويتوقع صدورَ الأجزاءِ المُتبقيةِ لاحقاً.. وأرقام الصفحات تشير للجزء الأول.

(١)

إنَّ انسانيّتي لا تتمثَّل في التعاطفِ مع الإنسانِ في وجودِه بلْ في أنْ أتحمَّل الشعورَ به إلى جانبي.

فريدريك نيتشه

منذُ شهرٍ وفنانو المدينة، وبالأخص التشكيليون منهم في حمّى الحركةِ والتقصي، يبحثون عن الإزر التي حاكتها نبيلة ما زالت مفقودةً أو غيرَ معروفةِ الملكية بينما استماح نديم العذرَ من آنا اخماتوفا التوقّف عن تلحين قدّاسِها الجنائزي ليصيغَ موسيقى تصاحبُ المعرضُ المُزمَع عقده لنبيلة؛ ذلك الذي يريدُه الجميعُ مَعرضاً للأصالةِ؛ انطلاقاً مِن أنَّ الأصالةَ هويةُ الموهوبين لا الطارئين.

ولأنَّ ما جاءَ على لسانها قبل مغادرتِها المدينة والتواري عن الأنظار أنَّها حاكَت ستاً وعشرين إزاراً فقد شرعَ المهتمون بالمعرضِ وتحت يدِهم عشرونَ إزاراً يبحثون عن الستة المجهول وجودِها: أين تكون، ومَن هُم مالكوها.. هل لا تزال داخلَ مُحيطِ بيوتات المدينة أم خرجت مع مشترٍ، أو حملت هديةً

لمدينة أخرى لمقتنين اشتروها كلحافٍ صوفٍ يَقي النائمين برد الشتاء القارص؟

لقد سَلبَ القدرُ، الذي تحدَّته يوماً، سعادتَها.. أطاح بثقةٍ كانت تَملأ قلبَها، وهشَّمَ الاصرارَ على البقاء شامِخةً، فغابت كأيّةِ امرأةٍ مَقموعةٍ، مُنعزلةٍ، وَحيدةٍ إلّا مِن إرثٍ وزَّعته كروايةٍ صوريّةٍ وبذكاءٍ عَبر نتاجاتٍ حاكَتها؛ بمجموعِها تُشكِّل فصولَ هاته الرواية. فالحياةُ مَكتبةٌ مُطلقةُ الحَجم، ولا نهائية السِّعة.. رفوفُها هائلةُ العَدد. ترتفع إلى لا حدّ لها مِن الارتفاع.

رفوفٌ تَصطفُّ عليها الروايات.

إنَّ البَشرَ لرواياتٍ حقّاً.

رواياتٌ تختلفُ فُصولُها، ويتفاوتُ عَددُ صفحاتِها... هناك رواياتٌ قصيرة من نوع النوفيلا عندما تكون حياةُ خاصِّتها قصيرة. فنبيلة روايةُ نوفيلا، تتراصف الآن مع رواياتِ توماس مان وفرانز كافكا وهنريك فون كليست.. مع سرديات جيرهارت هويمن ويوهان فولفانغ جوته الروائية.

غابت نبيلة مُخلِّفةً، ما لم يُصدَّق، كلَّ هذا الفيض من الجَمالِ والسِّحر والإبهارِ في مَجموعةِ إزر ارتأى القدرُ أنْ يكون عددُها بعددِ سني حياتها.. لكأنَّه جعلَ لكلِّ سنَةٍ إزاراً فنياً حاكت فيه تصوّراتها وتطلّعاتها؛ ما جرى لها، وما

تخيَّلته سيجري؛ ما تمنَّته وما لم يتحقَّق من الأمنيات.

لقد جعلت في آخر إزارٍ صَنعته ستاً وعشرين جملاً يسيرون في رتلٍ واحد ، ونسقٍ يلفت انتباه مَن يتطلّع إلى الحافة السفلية من الإزار كما رسالةٍ تُختَتَم بعبارةِ الوداع. وداعٌ ينبثقُ كالشعاعِ الآيل إلى الخفوت تمثّلُه قامةُ فتاةٍ تنتصبُ على قمّةِ تلَّةٍ تطالعُ الرتلَ المُبتعدَ وقد انسابَ من بينِ رموش جفنيها الهابطين سيلان من دمعٍ ساخنٍ ظلّا يجريان حتّى والرتل يتوارى ويبقى الأفقُ خالياً يحاورها وينتهي بإقناعِها أنْ لا أمل في عودةِ القافلة، فالصحراءُ لا حدَّ لها.

صدى روحِها يُردِّدُ: لا حدَّ للصَّحراءِ، يا صغيرتي. إنَّ الصَّحراءَ كانت مَدىً عَصيّاً. لا أحدَ يتنبأ برأفتِها فيعيدُ لقلبِ الفتاةِ مَسارَ الأمل.

(٢)

واندفعَ شُعاعٌ من الضوءِ عَبرَ النّافذةِ وسقطَ على ملامِحِه، مُضيئاً الخدود الضامرة، والفم الذابل والعيون الكبيرة المليئة بالدموع.

نيكوس كازنتزاكي

رواية (القديس فرنسيس الأسيزي)

تَمتلئُ مِنفضةُ السَّجائرِ بالأعقابِ؛ والصحنُ الذي يتوسَّط المنضدةَ فيه بقايا عَشاءٍ تناولُه الرسّامُ بمَلَلٍ. بقايا ما زالت في قَعرِ حاويةِ الفلّين البيضاء التي تَسلَّمَها من عاملِ المطعم... هناكَ على الجدارِ الجانبي لوحةُ "القراءة" لبيرت موريسو، الفنانةُ الانطباعية التي ثَمِلَت باكسير الألوانِ يوم غرقَ الانطباعيون في نَبيذِ اللونِ والضوء، وتَعالَوا على قيودِ المَرسَمِ ليكونوا أحراراً يمارسون فعلَ الرسمِ في الهواءِ الطلق.. وهناك في زاويةِ الصالة المُعتمةِ تتراصفُ لوحاتٌ عديدةٌ، مَيتةٌ أو نائمةٌ هَجرتها الاضواءُ ونأى عنها البُهرجُ (إنَّها نصوصُ الرسامِ التشكيلية التي تقضُّ مَضجَعَه كلّما نَظرَ اليها)... أمَّا هُنا على حافةِ المنضدةِ فبضعُ أوراقٍ بَيضاءَ امتلأت بتخطيطاتٍ مُتعددةٍ لوجهِ فتاةٍ واحدةٍ عكّرته قطراتٌ تشرَّبها

الورقُ؛ يُخيَّل لمَن يُطالعُها أنَّها قطراتُ ماءٍ سقطت بعفويةٍ بعد رَكنِها؛ لكنَّ الصحيحَ أنَّها دموعُ الرسامِ تقاطرت أثناءَ فعلِ التخطيط. فكانت عيناهُ مع كلِّ جرَّة قلمٍ واظهارِ مَلمحٍ من ملامحَ الوجهِ تتضبَّبانِ، وأصابعُه القابضةُ على رأسِ القلمِ ترتعش؛ ومعها يرتعشُ القلمُ أيضاً. وبالإمكانِ سماع نشيجٍ من قرارٍ لروحٍ يتألم. (إنّه نشيجُ الندامى، وصراخُ المعذبين).

مَن يتفرَّس في أيِّ تخطيطٍ ويدقِّق بنظرةِ ذكاءٍ سيُشاهد خصلةَ شعرٍ هابطة كَنصلِ سِكّين؛ حافتُه تَمسُّ جانباً من الرقبةِ؛ ومِن أدنى هامةِ النَّصلِ أحدَثَ الرسامُ خَطاً عميقاً هابطاً كأنَّه جُرحٌ موغلٌ في عمقِ الرغبةِ بالقتلِ أو اندفاعٌ مدروسٌ لاغتيالٍ بينما كانت عينا الفتاةِ في حالةٍ من الذهول، حالةٍ من الاندهاشِ.. كانتا مَلمحاً من الإدانةِ؛ تعبيراً عن هجاء.

وكتذييلٍ يمارسُه الرسّامون بعد انجازِ لوحاتهم أو اسكجاتهم كتوقيعٍ يمثلُهم كانت حُروفٌ لاتينيةٌ مُتعرجةٌ، ومُنحنيةٌ، ومُتكسِّرةٌ، ومُهشَّمة. لا بدَّ أنَّ الرسّامَ وفي أوجِ شَجنِه خَطَّها فجاءت غيرَ واضحةٍ أو تَقَصَّدَ جعلَها متماهيةً مع الخطوطِ الرماديةِ والسوداء؛ هي حروفٌ يمكن استخلاصُها بعينٍ مُتحرٍّ ضَليعٍ في اكتشافِ أثرٍ، فيخرج بأنَّها كلمةُ " قاتل.....

murderer" .

بضَجرٍ وتكَدِّرٍ؛ بجَزعٍ ومَللٍ رفعَ الرسام سماعةَ الهاتفِ مِن قاعدتِها التي تشبه هَرماً بلا ذروةٍ، وراح يدوِّر عَدداً من الأرقام، ثم يقولُ بعدَ صمتٍ ثقيل:

"هل لكَ أنْ تأتي، يا نديم.. أختنقُ بالكَمَدِ؛ أغرقُ في الهَوان."

عَبرَ الاسلاكِ يأتي الصوتُ البعيد، مَعجوناً بالأسى؛ مَقروناً بالرجاء:

"لماذا لا تَنم، يا صديقي؛ الليلُ تجاوزَ انتصافَه؟! "

"لا أقدِر؛ تعالَ.. أرجوك."

"حاضر.. مَسافةُ الطريق وأكونُ عندَكَ."

وكان نديم لحظةَ رنَّ الهاتف يُصاحبُ آنا أخماتوفا في مَسارِ جِراحِ كتابٍ يضمُّ شعرَها، داخلاً معها في حوارِ مُعاناةٍ وألمٍ يتشربان ساعاتِهما.

فالمعاناةُ سيلٌ من الجِّراح؛ والألمُ بُحورُ الشعرِ المُتلاحقةِ.

تَقضي النهارَ حَسيرةَ البيتِ وأسيرةَ الذكرى.. إنَّ الحزنَّ كالأسرِ كلاهما ثقيلٌ، وقاسٍ، وموجع. وإنَّ القلوبَ آنْ تَتَوجَّع وتعاني القسوةَ وثقلَ الأسى يتراجع إزاءَها الصبرُ؛ فتروحُ تبحثُ عن فسحةٍ تهبها أوكسجينَ الأملِ ولو على شَقاء.

لقد كانت أخماتوفا زهرةً في بريِّةٍ أو غزالةً نأت عنها الفيوضُ. وكان لها نديم كالهتافِ الذي يأتي لها بجرعةِ تفاؤلٍ تُرطِّب شراييِنها وتجعل الدمَ ينسابُ بلا مُعيقات.

يراها منكمشةً وحزينةً على زوجها الذي أُعدِم، وولدِها القابع في الزنازين، والسنوات السبع عشرة التي قَضتها سَجينةَ رأيٍ تَسحقُها رَحى الستالينية الثقيلة، لكنَّها تُظهِر تحاملاً وإنْ بأسلوبِ المُكابَرةِ. ما عادَ الحزنُ يكفي وفاءً للمعذبين؛ والانكماشُ لا يعني وضعَ حدٍّ لتهافتات خناجِرَ الأقدارِ. فهاتيكَ الخناجر جراحٌ فاغرةٌ في قلوبٍ لا تهدأ من الوجعِ والتأوّه.. يطالعُها تتملّى كلماتِها المحفورة على الورق، وتحاورها. فيصلُ إلى نتيجةِ أنَّها لا تقلُّ جَزَعاً عن صديقِه الرسّام.

لماذا لا يبدِعُ الموهوبون إلا عندما يسيرونَ على لظى الجمرِ، ويتأوهون؟

ما لهمُ المرهفونَ يدخلونَ جحيمَ الوعي بإيقاعٍ يفوقُ الجنون؟

إنَّ الابداعَ لفي جمرٍ؛ وإنَّ المبدعَ لفي لظىً وسعير.. ومع هذا تراه يتقبَّل الخناجرَ، ويتصدّى للصَهد. يقولُ الالمَ قصيدةً. يقولُها لَحناً طروباً آسراً. يقولها لوحةً تطغي فيها ألوانُ اليناعة، ويرفلُ على جسدِها الضوء. يقولُها سَرداً قَصصياً يَحتفي بالحياة.

لقد كان رينوار في آخر أيامِه يتألم وهو يقودُ الفرشاةَ لتسكبَ جذوتَها على القماشةِ، ومفاصلُه تفجِّر في قلبه نيازكَ الوجع. ومع ذلك كانَ حصادُهُ هناءةَ الأعماق؛ وسنابلُ الروحِ تينعُ بالجمال. فالوصولُ إلى تخومِ الجمال مُبتغاه، وحيازةُ الخلقِ القويمِ هدفُهُ.

إنَّ الخَلاّقَ ليبقى.

وكانت أخماتوفا تشاهدُه، بعدما خفَّفت من حالةِ ارتعاشِ الأصابع، ومحاولةِ الظهورِ أكثرَ جَلَداً. تشاهدُه ينهض ليرتدي ملابسَ الخروج، فتحفِّز كفّها على الامساكِ بذراعِه بينما الكفُّ الأخرى تتشبثُ بحزمةِ الورقِ الابيض وقد اصطفت على خطوطِه كلماتٌ تتساوقُ وموالُ الروحِ الذي سكبت ايقاعَه على تينكَ الورق.

قالت تتوسلُه:

"خُذْ من وقتِ صديقِك وطالعني؛ فلقد انتهيتُ من كتابةِ قصيدةٍ جديدةٍ أُريدُ اطلاعَكَ عليها علَّكَ تُلبسُها من أوتارِ عودِك ثوبَ الرجاء.. أُريدُ لكلماتي أنْ تستحيلَ أصواتاً في كورالٍ حزينٍ تصنعُه اوتارُ آلتِك."

تشاهدُ عُودَه المركونَ عند زاويةِ الاريكةِ بخميلتِها الخضراء الداكنة. وعلى الجدارِ، فوقَ العودِ بمترٍ انتبهت لصورةٍ له مؤطرةً بإطارٍ مُذهّب يحتضنُ عوداً ويجلس في

الصفِّ الأمامي من فرقةٍ موسيقيةٍ ببدلاتٍ سوداء وقمصانٍ بيض وأربطةٍ حمراء.. على يمينهِ عازفُ آلةِ القانون ومجموعةُ عازفي كمانات؛ وعلى شمالِه عازفُ نايٍ ضريرٍ وضاربو طَبلةٍ ودف، فيما الصفُّ الخلفي وقفَ كورالٌ من فتيةٍ وفتياتٍ بوجوهٍ متورِّدةٍ وابتساماتِ فرحٍ كَونهم يساهمونَ في جهدٍ فنيٍّ أمامَ جمهورٍ جاءَ لارتشافِ المِتعةِ الموسيقيةِ على رواء.

مَن يَجرؤَ على التغاضي فلا يستمعُ لِما يقول؟ وكيف له أنْ يتَّخِذَ موقفَ الحياد وهو السائرُ إلى جانبها في دَربِ الآلام!... هي الجِراحُ الصارخةُ بالوَجعِ الدفين؛ وهو النازفُ لوعةً لما يَرى من شَقاءٍ يعانيه الصَّديقُ، وهوانٍ لا يمكن تجاوزُه.

يطالعُها بأسىً، مُكبِراً فيها صبرَها، مُثمِّناً شجاعتها على تَجاوز الأهوالِ.. يودُّ لو يبقى معها؛ وكان سَعيداً لمجالستِها. بهِ استعدادٌ لا ينتهي لصرفِ الليلِ بطولِه يصغي لما تقول. لكنْ ليسَ بوسعِه الآنَ تركَ صديقَه يُعاني.

" إنَّ صديقيَ الآن يتمزَّق، يا آنا.. ما فيهِ لا يمكنُ تجاوزُه. وما ارتكبَ ليس للأيامِ قدرةٌ على تجاوزه.. إنَّ قلبّه لبحرٌ يَحترق؛ والفقدُ الذي جرى لنْ يتركُه بسلامٍ."

سَلام!!

أيُّ سلامٍ هذا الذي يتكينن كالأمنيةِ في نَفسِ مُتشائِم؟!..

وأيةُ أمنيةٍ هذي التائهةُ في شِعابِ اللاجدوى؟!.. إنَّ المتفائلين يتوارون بأعدادِهم الضئيلة أمامَ طوفانِ التشاؤم؛ والحياة، التي تجري بزمنٍ يتجسِّد أياماً وأعواماً، لعاجزة عن ايقافِ هذا الطوفان... والسعادةُ، هذي الرافلةُ على خميلةِ المتفائلين الرائين وجودها نَغماً يُجمِّل فَضاءَ الأمل، لا أثرَ لها عند المتشائمين.

انَّهم يرونُها مُفردةً متواريةً في قاموسِ الفَقدِ؛ لطالما سمِعوا بها: فتاةٌ تتمايسُ جمالاً وخفَّةً وألقاً؛ فجراً وضحىً وسحرا.. يأملونَها غيمةً بيضاء تبتهج بالألق، وتتحلَّى بالنصاعة. فانبروا ينتظرونها.. ينتظرونَ قدومَها مقرونةً بضياءٍ عَسجدي يهبهم الخطوَ اليسير؛ لكنها، وبعدَ لأيٍ عَميمٍ ومديدٍ، وانتظارٍ ثقيلٍ وجثيمٍ تتبدّى كالعهنِ المنفوش، كالساقيةِ اليابسةِ، كالنافذةِ المغلقةِ التي لا توارَب أبداً.

عيناها تتوسَلان، ورقبتُها تَحتقنُ فيؤثِّرُ الاحتقانُ على وجنتيها البارزتين فتحمرّان. أمَّا العَرقُ فيتَّخذ مجريين على صدغيها سَمحت لهما كثافةُ الشَّعرِ القصيرِ الغزير.

"تأخَّر.. أرجوك! "..... تترجّاه آنا

لكنَّه لا يتأخر... لنْ يستمع.

"صديقي في وجعٍ كبيرٍ؛ لابدَّ أنه يبكي الآنِ وحيداً.. البكاءُ صارَ ديدَنه."

تندهشُ، فتسأله:

"يبكي؟!... يبكي في قمَّةِ تألقِه؛ في أعلى تخومِ النجاحِ والشهرة.. يا للألمِ.. كأنَّه أنا!! "

يتململُ من شدّة الجزعِ؛ وتعلو المرارةُ في حلقِه. فالجزعُ والمرارةُ صنوان في صَفحةِ كتابِ الحَزانى.

بودّه لو أباحَ لها: "جاءَ النجاحُ على ايقاعِ طَعنِ مَن أحبّه فأعزّه.. جاء على رتابةِ أيامٍ وغيابٍ توالى.. تلاهُ اهمالٌ ولامبالاةٌ.. جاء على تجنّ ما كانَ ليحصلَ لو تعالى على نكرانِ الذات وتسامى الحبُّ ولو على جراحٍ.. لذلك كانت الجنايةُ؛ وكانَ الندم."

لكنَّه قال متوسِلاً:

"امنحيني ساعةً، يا سيدتي. وبعدها سأعود.. ساعةً لا غير. إنَّ لي تعاوناً طويلاً معكِ.. سأحكي لكِ يوماً سببَ بكائِه. سأقصُّ تراجيديا الضياعِ والندم."

"سـ.....اعة !!!.. قالتها بشهقةِ انغرازِ سكّينٍ نافذٍ في قلبِها أو تغييرِ موعدِ ملاقاةٍ فلذّتها التي قضَت الليالي من أجلِ الوصولِ الى سجنِه والوقوفِ أمامَ شبّاكِ زنزانته.

"الساعةُ تعكّرُني، يا نديم.. وترهِقُني.. الساعةُ عندي دَهراً.. الساعةُ تدعُ الذئابَ تخرج لي من بينِ شقوقِ الجدران، من الكِوى، مِن ثقوبِ أرضِ البيت. تهبطُ عليَّ مِن السماء...

لماذا لا تنصّفها؟"

"سيدتي.. صَديقي فنانٌ حَسّاس مثلما أنتِ شاعرةٌ مُرهَفة؛ لا يحتمل بُعدي عنه.. إنْ لمْ أصلُ اليه واقضي الساعةَ مَعه تقتلُه ألوانُه... الألوانُ عندَ الرسّامينَ المَجروحين كالكلماتِ عندَ الشعراءِ المُعذبين، تَستحيلُ خناجرَ طاعنةً قد تُمزِّق ظهورهَم إنْ هُم عاشوا الوحدةَ... كم عددَ الطعنات في ظهرِكِ؟."

طأطأت رأسَها كَمَن داهمَها صداعٌ مصحوبٌ بدمدمةٍ؛ كمَن تلقَّت صَفعةً مِن قَدرٍ لا يرحم؛ كمَن أبلغَها السجَّانُ بمرضِ ابنِها في زنزانتِه ومَنعَ عليها مواجهتَهُ.

إنّ صَفعاتِ القدرِ حين تَجيءُ تُحدِّث رجَّةً مدوّمَة، تُبلي بلاءً قاهراً يصعبُ تبديدُه.

إنَّ الاقدارَ مَعاركٌ؛ انتصارُها مَحسومٌ؛ وإنَّ المطعونَ بخِنجرِ القَدَرِ انهزامُه لا رَيبَ فيه.

يدُ القهرِ فوقَ أيدي الحَزانى التعساء.

التعساءُ في براري العذابِ يهيمون. تراهم في كلِّ طعنةٍ يتوجعون... يتوجعون فيتهالكون، يا أخماتوفا.

بَدت أخماتوفا كأنَّها سَمِعت جراحَ المعذبين في الارض؛ التُعساءِ والحزانى والمقموعين؛ الفقراءِ والمهمَّشين والمسروقين؛ فقالت تردُّ على سؤالهِ دامعةً:

"كثيرةٌ هي الطعناتُ! كثيرةٌ جداً. لا استطيع حصرَها."

اعتصرَ قلبُه... إنَّه يستعيدُ اللحظةَ وجعَها وهي تردّد:

"كم مِن الأحجارِ رُميت عليَّ

كثيرة حدَّ أنَّي ما عُدتُ أخافَها

كثيرة حدَّ أنَّ حفرتي أصبحت بُرجاً متيناً."

يستعيدُ ساعاتِ تصميمِه على تلحينِ القصيدة التي هيَّجَت أشجانَه؛ ثم تراجعه عن تلحينِها في لحظةِ احساسِه أنْ سيكون لحناً مُبكياً يَفطرُ القلبَ. وهو لا يُريدُ استزادةَ آلامِ مستمعيه ويَفغُر جراحَهم اللاتحصى. إنَّ إحدى توجَهاته صُنعَ لحنٍ من أشعارِها؛ وتجسيد آلامها أصواتاً كورالية بحنجرةِ مُغنيةِ سوبرانو، وراقصين يؤدّون دورَ الوجعِ والطعنِ والانتهاك.

هوَ يَشعرُ اللحظةَ إنّه بين نارين تستعران في قَلبي عزيزين لا يمكن تفضيلَ أحدِهما على الآخر: الرسامُ الصديقُ الذي تربّى وإيّاه عندَ فراتٍ عذيبٍ وضفةِ محبّةٍ كالأمِّ الرؤومِ يجمعهما زقاقٌ يتباهى بفيئِه وبساطتِه وحنوّهِ؛ والشاعرة التي أحبَّ شِعرِها وعدّها صوتَ الموجوعين بفعلِ قسوةِ الانسانِ وعسفِه، والتي بقيت وفيّةً للجراحِ فلم تتخلَّ عنها، بل حوَّلتها قصائدَ ودواوين.

يستميحُها مَعتذراً... يتركُها تنتظر.

ويخرُج.

تلكَ اللحظةِ كان الليلُ يَشهد آهاتٍ تترجَّل في الطريقِ فيشهقُ المارّة. يصطدمُ بعضها بشجرة سدر زرعها صياد سمك هاوٍ كان اعتاد المجيء عصراً يرمي صنارته إلى ماء النهر منتظراً ابتسامة الحظ. كان الصيادُ هذا ارتأى تخليدَ نفسِه وتركَ ذكرى قربَ مكانِ رمي صنارتِه فحفر حفرةً بحجم قبضة كف، ودسَّ بذرة سدر، ثم دفنها وسقاها؛ وظل يسقيها يومياً كواجب يشبه واجب أداء الصلاة.. الشجرة الآن تتلقى الآهات فتعلن حزنها؛ فقد أخبرتها احدى تينك الآهات أنها قادمة من صدر موجوع ازدحمت في طرقاته الآلام وتناسلت الآهات. فاستطاعت هي وقريناتها الانفلات.. رأت الشجرة أن تلك الآهة فتاةٌ تتسربل بثوب القهر؛ تلفُّ رأسها بشال الأسى، مترنمةً بشجن اغنية تتحدث عن الضياع والفقد... مرت واحدة تتوجع فتتسم عازف العود رائحةً يعرفها.. يعرف مصدرها.. حث الخطى كي يدركها.. أكبر في نفسه تحمل المرارة.. تمتم متكدراً: " ما الحياة إلا عناء.. ما الحياة إلا شقاء "

كان موشِكاً على نقرِ بابِ شقّةِ صديقِه عندما وجدَها غيرَ موصدةٍ. حسِبَ الصديق هيأها له للدخولِ دونَ قرعِ الجرسِ أو النقرِ على خشبِ الباب.

إذْ دخلَ كان الوقتُ تجاوزَ انتصافِ الليلِ بأكثرِ من ساعةٍ. أبصرَ صديقَه مرتمياً على الأريكةِ ووجهُ الفتاة يتكرَّر باسكجات متعددة: واحدةٌ تطالعُه بعينين وسيعتين وشفتين تمتلئان رغبةً لتقبيلِه؛ وواحدةٌ كانت فيها الحيرةُ طافحةً من العينين بينما الفمُ مواربٌ على سعتِه، تعبيراً عن قلقٍ أو إفضاءٍ لألمٍ؛ وواحدةٌ ضيقةُ العينين كأنَّها ترشقُه بسهامِ عتبٍ أو تعنيفٍ من باب الادانةِ؛ وواحدةٌ مُغمضةُ العينين كأنّها تنامُ النومةُ الابدية، بلا حِراك، بلا نَفَس؛ ولا حتى أملٍ في الحياة.

جمعَ السكجات بدافعِ مَن يساوره شعورٌ أنَّ صاحبةَ الوجهِ تشكرُه، وتطالبُه بالوقوف الى جانبِ صديقه. فليس عدلاً تركه يتعذب لأجلِها بينما هي صارت من عِداد الغائبين الذين ليس من اليسر عودتهم.

كان مكانُ طمأنينتها الرفَّ الذي تتراصف عليه حاوياتُ الانابيبِ الزيتية الملوَّنة، وفرشُ الرسمِ المغسولةِ، ومجلداتٌ مصوَّرةٌ للوحاتِ الابداع الفني الانساني عبرَ الأزمنةِ، وكتبُ فنانين أحدثوا انعطافاتٍ خرافيةً في مسارات الحركةِ التشكيليةِ على مرِّ العصور.

رأى الصديقَ مغمضَ العينين وقد أرخى رأسَه على حافةِ وسادةِ الاريكة ونام... نامَ وفي ظنِّه أنْ سيتأخر عليه؛ أنْ

ستسجنُه أخماتوفا وراءَ قضبان أشعارِها؛ ستردِيهِ صريعَ الجزعِ لما تُسمِعُه من مُعاناةٍ تعيشها، وعسفٍ تتلقّاه.

حركةٌ غيرُ مقصودةٍ بدرت منه جعلت صديقَه الرسامَ يقول بعينين تسجنهما الأجفان:

"تأخرتَ عليَّ."

لم أتأخر.. تركت أخماتوفا بغيرِ دفاعات، وجئتُكَ." "

"يا لولعك بها، ويا لخوفِ أنْ يحصل لكَ ما حصلَ لي!" قال ذلك من بين قيودِ الاجفان "لا تزد تعلقك بها، يا صديقي.. إنّ شعرَها جارحٌ كالسكَين، وآلامَها ثقيلةٌ كالجبلِ لا تُطيق أنتَ حملَها."

"....."

كانت النافذةُ بمواجهةِ الأريكةِ التي تحتوي الصديقَ الرسّام مشرعةً؛ تكشفُ عن شجرةٍ كالبتوس كثيفةِ الأغصانِ والأوراق. وهناك شجرةٌ عملاقة جمعت العُتمةَ وغرِقت فيها، مُحتضنةً عصافيرَ النهار وحاجبةً الكثير من إنارة اضاءة الشارع. إنّها النافذةُ التي كثيراً ما وقفَ عندها ريثما يرتدي صديقه ثيابَه.. يُطالع من خلالِها حركةَ المارَّة والعرباتِ وراكبي الدراجات من الفتيةِ الذين يستمتعون بفراغِ الشارعِ من سياراتٍ تَحضُر شرطةَ المرورِ دخولَها في أوقاتِ زحامِ المارة.

لقد اعتاد زيارتَه لينعما بجولةٍ يجمعان مِن بستانِها راحةً تمنحهما فسحةً من الاسترخاءِ ويعيشان الحوارَ الفني. فالاثنان حينما ينهمكان في نشاطِهما المهني يهربُ الوقتَ وتتسارعُ الساعات فلا يجدا انفسَهما إلا وهما على اعتابِ ضفةِ الغروبِ وتبعثرِ ضياءِ الشمس.

أحزنَ نديمُ مشاهدةَ الفوضى على المنضدةِ فاندفعَ يرفعَها الى المطبخ فيرميها في سلَّةِ القُمامة؛ بينما يضع قارورةَ النبيذ الموشِكة على الانتهاء على رفٍّ جانبي، ومعها صحنٌ ما زالَ يحوي بعضَ المُقبِلات.

في المطبخ وجدَ لوازمَ الطبخ: صحونٌ وقدورٌ ومقلاةٌ وملاعقَ من وجباتٍ سابقةٍ لم يمسَسها الماء.. جمعها في حوضِ السنك وانهمكَ في غسلها ثم تجميعها جانباً كيما تنشف. أدخلَ في الثلاجةِ الصغيرةِ حبّات طماطم وأصابعَ خيار كانت متروكةً على لوحِ التقطيعِ الخشبي بينما فتحَ مُفرِّغة الهواء لتقذفَ الى الخارجِ وخمةً تشيعُ في الفضاء المحاط بجدرانٍ زرقاءَ فاتحة شابتها زيوتُ المطابخ المتبخِّرة المُعتادة.

بعد الاطمئنانِ على النظافةِ والترتيب، وبعد القاءِ نظرةً متفحِّصةً مسحَ فيها المكانَ خرجَ الى الصالة.

وجده سلَّمَ عدَّته الى نومٍ عميقٍ من جديد؛ وأنفاسُه أخبرت أنْ لا حاجةَ لوجودِه مثلما لا حاجةَ لإيقاظه أيقاظاً قد يتسبَّب

بإزعاجهِ؛ لذا كلُّ ما فعلَه هو الدخولُ الى الغرفة والمجيء ببطانيةٍ أحسنَ فرشَها على جسده، واستدار يغلق النافذةَ فالبردُ لصٌّ لا مرئي قد يتسلل في أيَّة لحظةٍ من هذا الليل الذي يعجبُه كثيراً استدعاءَ الريحِ بدلَ الانسامِ، سارقاً صحةً متذبذبة مِن جسدٍ شفّه الخواءُ، وانهكَه الضَّجر.

ألقى نظرةَ اطمئنانٍ أخيرة؛ وحسِب الليلَ سيحرسُ صديقَه حتى الصباح، فلا حاجةَ للبقاءِ إلى جواره. لذا تحرَّك؛ أغلقَ الباب الرئيس بحذرٍ ووجَّه قدميه لالتقاطِ درجاتِ السلم، نزولاً إلى الشارع.

في الشارعِ وجدَ الليلَ شاباً يرفلُ على خميلةِ السكون.

ليلُ السماوة هادئٌ، وطيِّعٌ، ووديع؛ يَسمو في عليائه... تمرُّ عليه الوجوهُ كالطيوفِ المبعثرةِ، ويمرُّ عليها حنوناً، عطوفاً، أباً.

يُدرك أنَّ مَن بقي إلى هذا الوقت لا يأتيه النوم؛ لا يُسعده الفراش، لا تمنحُه الوسادةُ فراشاتِ الأحلامِ كي يتَّخذَ الجداولَ اصدقاءَ، والبساتينَ مواعيدَ لقاء.

إنَّ الحزنَ لعميمٌ؛ والهناءُ مفردةٌ تبحثُ عن شفاهٍ تبتسم.

مواويلٌ يسمعُها صادرةً من أرواحٍ تعزفُ الوجَعَ وتجعلُه تقاسيمَ مرارةٍ، مُعلنةً استمتاعَها بالعُتمةِ عندَ ضفافِ الفراتِ البعيدة؛ هناكَ على نديفِ الرمل.

يعرفُهم؛ إنَّهم فتيةٌ آمنوا بأنَّ النبيذَ الذي يحتسونَه في توالي الليل، والوجعَ الذي يقولونه لهما إشهارٌ يُعلن حزناً توارثوه عن آبائهم فأجدادِهم، فأسلافٍ لَهم لم يقرأوا يوماً أنَّ أطرافَ أناملِهم مَسَّت حجرَ السرورِ المُقدَّس.

يودُّ الآن لو كانَ عودُه مَعه لهبط السلالمَ الحجرية، واتَّخذَ البساطَ الرملي مَساراً وصولاً اليهم.

ينظمُّ الى جمعِهم الحزينِ، فيعزفُ لهم أرواحَهم التائقةَ إلى حَبيباتٍ فقدوها، أو حبيباتٍ هجرنَهم، أو حبيباتٍ سُلِبت منهُم عِنوةً فأصبحنَ في كَنفِ آخرين يَسعدون بهنَّ ويهنئون.

كانت المواويلُ التي يسمعُها منهم بمثابةِ متواليةِ حزنٍ، أو ترنيمةٍ طويلةٍ من عَذاب، يستقبلُها الليلُ ويطويها بردائِه.

أيها الليلُ المُهيبُ، يا سيدي.. وأنتَ تعيش في عليائك: كم هي الجموع التي تشاهدُها تعيش الأحزانَ، وتشكو الفقدَ، وتأملَ تجاوز الجراح؟

قال له روحي الخمّاش، أُستاذه الذي علّمه العزفَ على العود، يوماً:

"تتبَّع آلامَ الناسَ وحوّلها إلى أنغامٍ تتأوه بها صدورُ مَن يأتي بعدَهم .. اجعلْ آهاتَ القادمين أنغاماً يترنمون بها كتاريخٍ يَقصُّ سيرةَ حياةِ المعذبين في الأرض... عودُكَ صوتُك المُعبِّر عَن الجموع، فكُنْ مَعهم دوماً. كُنْ معهم ولا تنفرد به فتجعلَه

القرينَ فتنسى عذاباتهم، فتغرقَ في بئرِ حُبِّ الذات وتفضيلِها على غيرها."

تذكَّر قولَ استاذِه اللحظةَ فساوره ألمٌ مُمِضٌّ لأنَّ العودَ بعيدٌ عنه.. بعيدٌ بما لا يستطيع الذهابَ الى البيت والاتيان به؛ ذلك أنَّ قلوبَ الجُلّاس على بساط الرملِ ستُفرِغ حزنَها لذاك اليوم. وإذا حثَّ الخطى واصطحبه بأوتاره وريشةِ العزفِ سيجد الموجوعين قد آبوا الى مضاجعهم.

نعم، لقد أتخموا ارواحَهم من موائدِ الوجع، وشبعوا مِن نهرِ البكاء.

حين وصلَ البيت وجدَ أخماتوفا نائمةً مثل طفلةٍ تحتضنُ ثوبَ العيد.. خدُّها يستقر على ورقِ القصيدة التي كتبتها ورغبت بقراءتها على مسمعِه.

سَقَطَ في هولِ الألم وتقريعِ النفس... سقطَ في بركانِ الحزنِ الذي في أوجِّ تأجّجِه.

أرادَ إيقاظها ليعلنَ استعدادَه للإصغاءِ لها بكلِّ ما في قلبِ الفنان من ولعٍ للبوح.

دنا منها.. مرَّرَ أناملَه على خدِّها المُنكمِش بتجاعيدِ الكهولةِ فاسترخَت مِسحةُ الوجه، وتحرَّكت الرموشُ. ومِن تحتِ الأجفان دارت كرتا العينين في المحجرين، تماسَّت الشفتان. أدرك أنَّ مرورَ الأناملِ يريحُها فطمعَ بمزيدٍ من

إغداقِ حنانِه عليها. أمرَ الأناملَ بالمرور على رأسِها. استرخت خصلةُ الشيبِ الرماديةِ التي تفاقمت بعد اعتقالِ إبنها ، فقد كانت شعيراتٍ معدوداتٍ لم تُعرها اهتماماً انبثقت بعد إعدامِ زوجِها وهجومِ أرتالِ الأسى والشعورِ بالظلمِ لسلبِ حياتِه عِنوةً.

ودَّ قراءةَ القصيدةِ بلسانِه، بشوقِه، بمشاعرِه فسحبَ حزمةَ الاوراق. وكان أملُه أن تستمر برقودها، لكنَّها أفاقت.

قالت له: "أطلتَ عليَّ، لقد انتظرتُك طويلاً، كيف هو صديقُكَ؟

"سامحيني"، قالها بتضرعٍ، مُكبِراً فيها انسانيتها بالسؤالِ عنه ؛ هي الجريحةُ التي لا تقلُّ وجَعاً عن صديقِه.

"لا أستطيع تركَه يعيش الألم.. لو كان حزين هُنا لرافقه ساعةً بساعةٍ، ولقلَّلَ فقدانَ الاستقرارِ الذي يعانيه وتلاشي الطمأنينة التي يرجوها."

"حزين!! مَن يكون حزين؟.. تساءلت وقد جرحَها الاسمُ وايقظ فيها الأشجان.

"حزينُ صديقي، شاعرٌ.. كنتُ وايّاه نتبادلَ المشاعرَ؛ يدعمُ أحدُنا الآخر.. تزوَّجَ وانتقلَ الى البصرة؛ فزوجتُه مِن هناك... هناكَ أحبَّ العَشّار والكورنيش والسيّاب فلم يُطِقْ البقاءَ هنا

في المدينة.. هل تعرفين السياب؟"

"لا!"

"مثلكُ شاعرٌ، ومثلُكِ حزين.. إنَّه من المُجددين في الشعر. كتب ما سُمّي الشعرُ الحُّر.. شعرٌ يلتزم بالتفعيلةِ لكنه لا يتقيّد بالقافيةِ.. ماتَ ولم يبلغ الأربعين."

نهضت من كرسيّها، وتحرَّكت صوبَ النافذة.. راحت تُطالعُ الفراتَ وقد اتكأت بمرفقيها على الحافّةِ الخشبية.. صرفت ثوانٍ قليلةً قبل أنْ تفوه:" فراتُكم هذا يُذكّرني بنهرِ موسكفا؛ هنالك في موسكو التي ترتوي من نَقاء روحِه. يُعيد لي صحبةً لا انتهاءَ لها. الأنهارُ صحائفٌ برَّاقة تهبُ القرّاء مِتعةَ الانشداد ولذاذةَ حُبِّ التشبّث والاستمرار.. النهرُ رفيقٌ أبدي.. صادقٌ وحبيبٌ حَميم."

ثم كأنَّها تذكَّرت صديقَه الرسام، سألته عمّا جرى مَعه، وكيفَ وجَدهُ.

إنَّ ذوي المشاعرَ يتناغمون بالهمِّ. ويتفاعلون معَ الاحزان. يتبادلونها كأنَّها مُلكٌ مشتركٌ.. إنَّ الأحزانَ هويتُهم.

اخبرها أنَّه وجدَه نائماً فلم يتجاوز على فُسحة النومِ التي وهبَها له الليل.. "اغفاءتُه تُسعدني، يا سيدتي؛ ونومُه يجعل مني مَخلوقاً سعيداً لأنَّه هجر النومَ منذُ زمنٍ... لم يعرف هناءةَ الاستلقاء على فراش. فالسريرُ يفتقد لحرارةِ جسده؛

والوسادةُ تَحنُّ لاحتضانِ رأسه... أغلبُ وقتِه يقضيه مُستلقياً على الأريكةِ، فلم يذُق طعمَ الرحيلِ على سرير."

تأسَّت لما سمِعت؛ وودَّت لو يَحكي لها قصته؛ فهي أمٌّ تَعرف حَجمَ المعاناة، ومَكلومةٌ تذوقَت طعمَ عَلقم الألم."

إزاء رغبتِها وإعلانِ استعدادِها للانصات شرعَ يقص.

أخذَ القَصُّ، منهُ ومنها، ساعتين من الوَجَع واثارةِ الأشجان، ومشواراً طويلاً من الاكتواء بلظى نارِ ما جرى.

سمِعت ما قال عن المُصادفةِ، وعنِ اللقاءِ، والولعِ، والوقوعِ في أسارِ الألوان؛ عن شهرةٍ نالها مِن فَيضِ ابداعِ الحبيبة وموهبتِها الخرافية التي ألهمته فصنعَت له اسماً تناقلته الصحفُ والمجلات، وتداولته الفضائياتُ... سمعت شغفَ المرأةِ وعذابَها حين تُحب.. سمعت رفيفَ القلبِ عندما يقتربُ موعِد لقاء الحبيب ويحين؛ عدوَها في الشوارعِ والطرقات مِن أجلِ خبرٍ عَنه يرطِّب جَفافَ القلب، ويُزيلُ يَبابه؛ رقصَ الروحِ وهفهفتها وهي بين ذراعي حِنوِّه وسماعِ كلماته؛ وجيبَ القلبِ لحظةَ الوداعِ والغيابِ لأيامٍ أو حتى لساعات.. ثم تلَقِّي خَبرِ رحيلِ الحبيبةِ وهي ترى بأُمِّ العينِ قَسوتَه، وبُعدَه، وهَجرَه، وَجفاءَه.

قالت له:

إنَّ صديقَك هذا مثالٌ للأنانيةِ وتفضيل النَّفس؛ فالعشّاقُ

الحقيقيون هويتُهم التضحيةُ وشعارُهم جمعُ الرحيقِ لإرواءِ مَلِكةِ خليتِهم التي هي كينونةٌ مصغرةٌ للحياة... ربحَ الشهرةَ وخسرَ الحُّب... هو مَن تجنّى، وهو مَن ارتكبَ الخطيئة.. استخفَّته الاضواءُ وأوقعتهُ في شِباكِ خداعِها... أمّا مَن أحبَّته فكانت على حقٍّ. كرَّست حبَّها له فكافأها بالهجرِ والتجافي... إنَّها تشبهُني في عِشقي... أنا عشقتُ الوطنَ وقدمتُ له هِتافَ قلبي شِعراً فقابلني القائمونَ عليه بالأذى والعَسَفِ والحرمان. أعدموا زوجي، وأذاقوا ولديَ الوحيدَ أربعةَ عشر عاماً من الاعتقالات المُتكررة.. حَضرَت السلطاتُ نشرَ أشعاري لعشرين عاماً... عشرون عاماً بأيامِها واسابيعها وأشهرها. أصدرت تلك السلطات قراراً بطردي من عضويةِ اتحاد الكتاب السوفييت.. جعلتني أتهالكُ ساعاتٍ وساعات في الطابور مع المقموعين والمُهمَّشين أمامَ بابِ السجن... أقفُ لمقابلةِ ولدي ليف في صَقيعٍ قاسٍ، هو بحدِّ ذاته عِقاباً مَفتوحاً يَشهد على حكايةِ تعذيبٍ وامتهانِ الانسان لأخيه الانسان... من تلك المعاناة وذلك الهولِ كتبتُ قصيدة قُداس جنائزي.

انتبه نديم إلى أنَّه يحتفظ بالقصيدة. فقد حصلَ عليها من حَزين الذي كان يتمنّى لو أنّه كتبها هو، وكثيراً ما ردَّد أمامَه وأمامَ صديقِهما الرسّام: " إنَّها واحدةٌ من أروع قصائدَ القرنِ العشرين، وأهمُّ ما كُتِب باللغةِ الروسية."

وكانت أنا تريد مواصلةَ حديثِها بالقولِ:" نذرتُ شِعري لوطني، وصلّيتُ للأرض، و....." عندما قاطعها بشيءٍ من المباهاة.

"أحتفظُ بهذه القصيدة، يا سيدتي. فهي مشروعي اللحني الكبير.. أوتاري تَطرقُ بابَ استهلالها، وكورالُ مشاعري يتهيأ للحوارِ معها."

سعُدت لما سمِعت. فقد كان لها من الأمنياتِ أنْ ترى شِعرها يتجسد حياةً على خشبة المَسرح، وتسمعه يُتردَّدُ على ألسنةِ المَجروحين المُعذَّبين.

كان لها مِن الآمالِ ما يصنع في قلبها الهَناء اذ تلتقيها القصيدةُ في الهند مَثلاً، أو انغولا، في اليمن أو غويانا، في الباكستان أو موريتانيا، في لوكسمبورك أو آيسلند، في أحدى جزرِ الكاريبي أو عند بحيرةِ فكتوريا، أو على أعلى قمّة من جبال الهملايا. فقصائدُها رسائلٌ تُحلِّق مع تموِّجات الأثير. تنثر عِطراً انسانياً، وشذا بوحٍ يقولُ الوفاء.

قالت له بشيءٍ من الأسى:

"إنَّ العَسَفَ لن ينتهي مِن هذي الارض، وإنَ الظلمَ ديدنٌ بشري سيبقى في نفوسِ الموتورين؛ لكنَّ هتافاتنا من خلال الشَّعر والموسيقى والفنِّ كفيلةٌ بتحجيمه، وتضئيل فعلِه إنْ لم أقُل تحييده وركنه جانباً كي تأخذَ الانسانيةُ مسارَها

على طريقِ الرحمةِ والتآلفِ والوداد."

مررت كفَّها الممتلئة على رأسِه، وبحنوٍّ أمٍّ رؤوم قالت:

"اذهبْ الى فراشِك ونَم، يا نديم."

"لا أقدر.. ماذا لو خرجنا؟ "

"لكننا ما بعد منتصف الليل؛ ومدينتُكم تنامُ مبكرة."

"لا؛ هناك مقهى تبقى حتى الصباح يرتادُها السهارى والحزانى والموجوعون. لقد تركتُ لصديقي الرسام اقتراح أنْ يأتي إنْ جفاه النوم."

"أذاً، هيّا.. دعنا نخرُجُ؛ لعلَّ صديقَكَ يأتي فعلاً."

(٣)

ما انتظرُه منكَ، يا راينر؟.. لا شيء.. كلُّ شيء
أنْ تسمحَ لي في كلِّ لحظةٍ في حياتي أنْ أرفعَ عيني
صوبَك؛ كما إلى جَبلٍ يحميني. كان هذا مُمكناً قبل
مَعرفتي بكَ. أمّا الآن فيحتاج الأمرُ إلى اذنٍ.
من رسالة مارينا تزفيتاييفا
الى راينر ماريا ريلكه

داهمُها الوله، وتاهت في هُيامٍ آسر؛ ثم انتبهت على وقعِ خطواتِه ترسم وجودَه طيفاً.

تمنَّت أنْ تكون قد تعلَّمت فتقف لتبتَّ اليه. تملأ الاوراقَ بغزيرِ العبارات المأخوذة من فيوضِ التجلّي:"، تعالَ أيَّها المعجون بحنّاء روحي، العابقُ بليلِ المحبين.. تحرَّك إليَّ فإني فاردةٌ ذراعي لاحتضانِ شوقِك وانتظارِ مَطرِ انفاسك."

كان رسا على موانىء شغفِها في لحظةٍ لم تَحسبها، فظنَّته خَيالاً يأتيها كما يأتي لأناسٍ يرون الحياةَ مشوارَ ودٍّ، وتعالقٍ، وتواصل. فتخيلته يَفوه:" أنا مُدلَهٍ بما فيك، ومغموسٌ

في قدحِ عسلك.. أنا الرسّام الذي يشعر بالضياع لأنَّ مَن يُريدها لم يَجدها. أسعى لتوثيقِ حبّي بختمٍ، ولا يعوزني غيرُ فتاةٍ قادمةٍ من حدائقَ الأحلام ومرابعَ الفنِّ الرخيم. فتاةٌ توازيني في الرأي؛ تساويني في التطلّع فأرسمُها وترسمني أيقونةً للمحبين ولوحةً أبديةً للإخلاص والشغف. "

وكانت تُردِّد في شوارعَ الروحِ وهي تسيرُ هائمةً ترتدي فستانَ الوله: أنا التي ارتكبتُ حَماقةَ السرقةِ فاختطفتُه.. رسمتُه الظبيَ الملاحَقَ من قِبل غزالةٍ وزَّعت قلبَها رسائلَ تتعقبه، وطفقت تذرفُ الدموعَ حين يعتلي تلَّ اللامبالاة فيتركُها تتعثَّر في وحدتِها.

هي، هي مَن نَصبت السيطراتِ الصارمةَ بغيةَ ايقافِه وقراءةَ فحوى هويةِ قلبِه ودروبِ مشاعره.. تفرَّست به مليّاً، وحدَّقت في عينيه كثيراً.. مرَّرت أطرافَ أناملِها على خديه وجبهته، وتحسَّست شفتيه فأيقنت أنَّ ما تراه حقيقةً؛ وإنَّه هو، هو مَن أبصرته يترجَّل في سوقِ السماوة المزدحم بالمتسوقين والمتفرجين يَحمل تحتَ ابطِه كتاباً وصحيفةً، غير آبه بالمعروضات، ولم تُلفِت انتباهَه نظرةٌ مقصودةٌ من فتاةٍ تقدَّمت بأناقةٍ باهرةٍ وبطولٍ ممشوق، شقَّت الزحامَ كي تجانبه وتهمس بما تصوَّرَه قلبُها شاباً يجاريها في عذوبتِها الفنية وجنائنِ روحِها الخضراء: " من أين لك كلّ هذا

البهـاء؟!"... لا ، ولا أدار انتباهـاً لدفعـةِ مماحكـةٍ مِـن امـرأةٍ اربعينية تفاجأ قلبُها بجمالِ شابٍّ أخّاذٍ فضغطت على اتزانِها واستحالت مُراهقةً لعوب.

وشاهدته مَرَّة أخرى، أمامَها على بُعدِ أمتار، هو قلبُها الذي انفجرت في دروبه ألغامُ الولِه؛ وهي روحها التي ولِدت تائقةً لذلك الرافل على عِشبِ الغيبِ اليانع... كانَ يُصاحب صديقاً، فوجدَتها فرصةً لإثارة انتباهِه.

أوسعت الخطى كي تدنو منهما. كانت الخُطى تلهث مَحمومةً، والعباءةُ التي تلفُّ الجسدَ لا تقوى على لَمِّ الأعضاء فيما لحظاتُ الغروبِ تُمطر أنساماً، والشمسُ تترك لها فسحةً من أملِ تحقيقِ المُراد... سمِعت حوارَ اللونِ والضوءِ والقِماشة مِن جانبه، وطبيعةَ اللحنِ والاوتارِ من جانبِ الصديق؛ فعرِفت أنَّه رسّامٌ وأنَّ صديقَه موسيقي.

ولكي تجعل كتفَها يحتكُّ بكتفِه تحرَّكت مُسرعةً لتتقدمهُما... تلكَ الحركة تسبَّبت بسقوطِ كتابٍ كان تحتَ ابطه... الكتابُ سقطَ أرضا فكشفَ غلافُه الأمامي تحتله صورةُ الموناليزا.

احمرَّ وجهُه غَضباً، وكاد أن يُسمِعُها كلاماً خشناً، لكنّه تراجَعَ؛ مُخمناً فعلَها إمّا تهوراً أو خَجلاً أربكها وهي تحاول اجتيازهما.

في تلكَ المرّةِ حدَّق في وجهِها. طالعَ القَسمات التي تضرَّجت باحمرارِ الخَجَلِ، واصطادَ العينين اللتين طَفَت فيهما مياهُ الاعتذار والأسف فتقبّلهما بتمتمةٍ سمِحةٍ مَقرونة بإعجابٍ يُثير التأملَ.

اندفعت الأعماقُ تتساءل: أيُّ وجهٍ هذا الذي يجمعُ جمالَ الموناليزا ودفئها؟ !.. أيُّ قوامٍ هذا الذي تبارى ديلاكروا على تخليده في لوحة " مدام دي فيرنين "؟!

طالعَ صورةَ الموناليزا التي في الغلافِ وتوجَّهت نظراتُه تقارن

بين الوجهين... كادَ أنْ يسألها: " تعرفين الموناليزا؟ .. أنتِ هي... والموناليزا أنتِ."

وفي المرةِ الثالثة هو الذي شاهدَها تخطو في السوق وتتوقَّف عند بائع أصباغٍ، ولم تكن شاهدته... لمحَها تشير الى البائع على المساحيق المتنوعة المُكدَّسة في حاوياتٍ مَعدنية تلامس الهواء.. لم يضع في باله أنَّها قرينةٌ له في اللونِ والرسم.. لم يتساءل في سرِّه عن سببِ شرائِها تلك المساحيق... فقط توقَّف على مبعدةٍ ينتظر انتهاءَها من الشراءِ ليوجّه اليها ابتسامةَ دعوةٍ للفت الانتباه.

صُعِقت لرؤيتِه يبتسم، وابتهجت لتوقُّفِه كي يُعلِمها أنّه بنظرهِ وابتسامتِه يقصدُها مُعبِّراً عن الاعجاب، وما عليها

سوى أنْ تبتسم له كرسالةِ ادراكٍ، وإجابةٍ على تساؤل.

تبادلا النظرات..

هو مَن قالَ عبرَ رسائل العين:" يا لكِ من فتاة أبحثُ عنها !"

وهي من هَتفت بلسانِ قلبِها:" ما أروعك ! "

فتخيلته يرسمَ ويتعاملَ بفرشاته مع الألوان كما تتعامل هي معَ خيوطِها الملوَّنة.

تخيَّلت ما يحدث له من لواعجٍ وهياجٍ عاطفي وهو يَضربُ بفرشاته هنا؛ ويضرب هناك.. يخلقُ من الألوانِ حياةً مثلما تَصنعُ هي من الخيوطِ دُنيا ومن الألوان عوالمَ جمالٍ أخّاذ.

إنَّ الألوانَ بتنوعاتِها بمثابةِ الخيوطِ بتشابكاتِها؛ وما الحياةُ المبتغاةُ إلّا ألوانٌ وخيوطٌ، تتنوعُ وتشتبكُ. فالتنوّعُ يزيحُ الرتابةَ جانباً، والاشتباكُ يَجعلُ من المواقفَ مواثيقَ للتفاهمِ والتواد.

في البيت حاكته ظبياً يتوهَّج بالبهاءِ أمامَ ساقيةٍ تهدرُ بعذيبِ الماء، وعلى مَبعدةٍ جعلت غزالةً تهفو وهي ترنو بجيدِها باتجاه الظبي البهي.

أما هو فبعودتِه توجّه الى غرفته. فضَّل عدمَ ضياعِ لحظةَ التوهُّج فاندفع مُستعيناً بقلمِ التخطيط والورقة وراح بحدسهِ الفني، بثقافتهِ الموسوعيةِ، بألوانِه المجنونةِ على رسم قلبِها بستاناً يعجُّ بثمارِ أشجارِ التفّاح، ولونِ وردِ الرمّان، ورونقِ

نقاءِ الطبيعة.. أخذَ يردّد في ذاتِه ما قاله مونيه يوماً :" ليست هناك أمنيةٌ أعزُّ على نفسي مِن أنْ أتوحَّد مع الطبيعةِ وأنْ أعملِ وأعيش بانسجامٍ مع قوانينِها.". وكان ثمَّة وجهٌ صبوحٌ يتجلَّى مِن بين طوايا البهجة ويناعة الثمار.

رسمَها نصَّاً يتَّخذ أسلوبَ الرومانس، ويضفي عليه من بَهارِ روحِه وعِطر كلماتِه كيما يكون نصَّ العشّاق الأوحد ، أيُّ قَسَمٍ يردده كلُّ عاشقٍ أمام مَعشوقته، مَصحوباً بالدمع الزكي والآهات الولهى؟.. أيُّ بوحٍ يجده الأمثل في القولِ كما شاعرٍ تنسكبُ الموهبةُ لديه شَهداً على شفتي معشوقتِه؛ وأيُّ لونٍ يختار ليجعلَ منه رمزاً يُعلن روحَه فيه مقروناً بالضوء؛ وأيُّ مقامٍ لَحنيٍّ اكتشفه يتوافق ولذاذةَ روحه؟!

كان بحرُ الطويل المُفضَّل عند امرىء القيس، والازرقُ لون فان كوخ المرغوب؛ أما الرست فمقامُ عبد الوهاب في تعاملِه مع العود... والثلاثة بما يفضلون ويتماهون صنعوا الجَّمالَ، والسِّحرَ، والتحليق... هكذا قرأ يوماً ملاحظةً بسطرين في مَجلةٍ فنيّة حملت عنوان " هل تعلم؟" ، فتساءل في سرِّه: وأنا أيُّ لونٍ سيمثلُ عصارةَ روحي؟.. أيُّ موضوعٍ سأتخذُه ليكونَ بادئةَ بدءِ مشواري الفني؟

حكَت له أمُّه، ولم تكُن تفقهَ سرَّ عِشقِ الفنان أذا تفاجأ

بإعصار يقلب حاويةَ الألوان فيجعلَها في فوضى لا تنتهي إلّا بلوحةٍ خارجَ دائرةِ التوقّع. لا تُدرك أنَّ المنعطفات كثرٌ، وأنَّ الكثرةَ من الكثيرِ خطيرٌ، وأنَّ واحداً منها قد يُغيِّر مسارَ حياته فيقودُها الى تخومِ الألق.

أخبرته أنَّها جاءت هي واثنتان من جاراتِها لتشتري إزاراً بناءً على إشهارٍ قامت به مؤجرةُ المنزل في الحيِّ المجاور؛ تسكنُه حائكةٌ شابّة لوحدِها راضيةً مرضية... إزارٌ حين التطلّعُ اليه والتفرّسُ فيه ينقلُك الى ريفٍ عامرٍ بالنخيل، (هتفت التي أعلنت شراءَه باندهاش: "اللّه! ما أجمل ما تحوكين!) وجدولٍ يتدفّق ماءً تمنحُه الأشنات؛ على جانبيه لونَ الاخضرارِ العَذب (صاحت إحدى الجارات: "ياه ! كأنَّ الماءَ حقيقيٌّ، أسمعُ جريانَه.)، وبيوتاتٍ طينية وأكواخ موادُّها الأولية بواري القَصب وطينٌ غُمِّسَت فيه أعوادُ التبن (آه، كم أحنُّ لبيوتاتِ قريتنا واكواخِها !.. تمتمت الجارةُ الثانية وهي تستعيدُ ذكرى قريةٍ رفلَت على عُشبِ بساتينها، وحملتها قسمةُ الزواجِ إلى المدينة)، وشمسٍ تغازلُ غيوماً بيضاء فتهبها النَّصاعةَ وتغمرها بالألق:"ألم أقُل لكِ لم تتركي المكان إلا وقد اشتريته؟.. خاطبتها مؤجرةُ المنزل المُشجِّعة وهي تنثرُ مَسحوقَ الإغراء في عيونِهن جميعاً".

إنّها تتحاورُ مع الطبيعة؛ الزاد الأبدي لإشباعِ جوعِ النفوس..

الطبيعةُ الذي تولَّه يوهان فولفغانغ غوته بماءِ حبورِها فهتفَ من شدةِ الهيام: "الطبيعة هي تجسيدٌ للعظمةِ والقوّةِ والخلود.".

لو كانت نبيلة بمستوى غوته الثقافي لمدَّت كفَّها تصافحُه قائلة: "لِكَم اوافقُكَ الرأي فأهتف:" أيَّةُ عظمةٍ، وأيَّةُ قوةٍ تصنعهما الطبيعةُ فتجسدهُما مَقرونتين بالخلود !... لم تغرني المدينة أيُّها الشاعرُ الفيلسوف؛ لذا بقيتُ وفيةً لمرابع حياتي؛ استدعي عينَ الطفولةِ لتبوح بأبجدية الجَّمالِ القادِمِ من ميادين البراءة."

هناك جمعُ غزالات يتهايفن احتوتها خَميلةُ الإزار الرقيقة قريباً من سَهلٍ يتباهى ببهاءِ زروعه. والشمسُ التي خلقتها بالخيوطِ الصّفر كانت تغني.. كانت تتوهّج.. كانت تمطر ذهباً بصورةٍ رذاذٍ يبرق. يبرقُ فيستقبلُه اخضرارٌ جعلته عُشباً يحتفي بحَمامٍ وعصافير اطلقت لها يدَ العِنانِ في البحثِ والتهادي.

مِن بين الغزالات رأينَ غزالةً نافرةً بجيدٍ يثيرُ الانتباهَ ويسرقُ اهتمامَ المُتطلِّع بموجوداتِ الإزار بينما هناك ظبيٌ ذو قرونٍ منتصبةٍ ومقوسةٍ حدسنه بطلاً لغزالتِها.. ظبيٌ يرفلَ على خميلةِ الكبرياء، يدعو الغزالةَ لتقبلِه قريناً لها وسط رغبة الغزالات الأخريات في أنْ يقترب منهنَّ، فتكون المحظوظةُ منهنَّ حليلةً له.

قالت لهنَّ:" جذوري ريفيةٌ لا أستطيع التنصُّلَ عنها. وحنيني إلى القرية التي نشأتُ فيها ما بعدَه حنين."

فانبرت إحداهنَّ وقد أوقدت الفطنةُ والذكاءُ شعلةً فسألتها:" لكنَّ ريفَ بلادِنا لم يعتد وجودَ الغزلان فمن أينَ جئتِ بهنَّ؛ وكيف حِكتِ الظبي بهذا السحر والرشاقة؟ "

ابتسمت.. استرجعت تلكَ السجّادة الجدارية التي جلبَها أحدُ اقرباءِ أمِّها كان يعمل في صناعةِ العباءات الرجالية في سوقِ الزل بالكويت، وكيف انبهرت بها وهي صغيرةٌ تصاحبُ أمَّها لزيارةِ بيت القريب.. لا تتذكَّر أنَّ شيئاً جذبَها وأبهرَها في ذلك البيت كانجذابها وانبهارِها بذلك الخلقِ الخرافي الساحر.

يومها ساحت نظراتُها على محتوياتِ السجادة وشيئياتها.. طالعت ذلك الظبي المنتصب بقرونِه المتفرعة وجمع الغزالات المتهاديات عن بعدٍ ينظرنَ اليه بإعجاب ودهشةٍ وقد تبارينَ من أجلِ لفتِ انتباهه (هكذا خُيِّلَ اليها آنذاك) فظلَّت تلكَ الصورةِ وذلك التخيّل يحفران وجودَهما في الذاكرة.

"الفنُ لا يأتي مِن فراغ"، أجابت "وما ينحفرُ في الذاكرةِ لابدَّ من ظهوره يوماً إلى العلَن."

وطفقت تحكي لهنَّ حكايةَ الماضي البعيد:

"كانت لجَدّي، والد أبي، موهبةُ النحتِ بالطين. وكان

حينَ يكون سعيداً وفي راحةٍ يختار مَكاناً من البستان، تُربتُه لزجةٌ فيسكبُ بعضَ الماءِ ويروح يكتِّل بيدِه كتلةَ طين يضغطَها ويعيدُ ضغطَها عديدَ المرات؛ وحين يقتنع بتماسكِها نلمح بريقاً جميلاً في عينيه وهو يوظّف أصابعَه كي تتولّى تشكيلَ ما يرتسمُ في مخيلتِه... إذا كان سعيداً نحتَ بطّاتٍ وطيوراً وأسماكاً وسلاحفَ؛ وإذا كان غاضباً منفعلاً نحت سيوفاً ودروعاً ورماحاً وبنادق طويلةً ومسدسات كبيرة؛ وإنْ كان هادئاً ويسمع أنَّ اصدقاءه الذين يعيشون في قرى ومدن بعيدة يعلنون حنينَهم ويفضون برغبةِ سماعِ أخبارِه نحتَ زوارقَ وهياكلَ سياراتٍ وسلسةً من القاطرات.. حين ينتهي منها يرفع رأسَه ويذهب في سهومٍ فيخيّل لنا أنه يودُّ لو استقلَّ واحدةً من هذه الوسائط للوصولِ اليهم؛ يتعرّف على حالَهم ويبث شوقاً إليهم، ويطالبهم بعدم نسيانِه وتركِه في قريتِه وهُم ينعمون بما كانوا يصورون له من وسائلَ عيشٍ جميلةٍ تبعد عنهم الشقاءَ والجهدَ المسفوكَ على أرضٍ لم تعُد راغبةً بهم... كنّا نحنُ الصغيراتُ نهرعُ اليه حالما نلمحُه يتوجّه إلى بقعةِ الأرضِ الطينية، نلوذُ وراءَ كومٍ من الحَلفاءِ الخضراء نُراقبُه باهتمامٍ ونطالعُ ملامحَ وجهه وهو يتعاملُ مع عجينةِ الطينِ وهي تتحوَّل بكفيهِ إلى كياناتٍ تثيرُ عجبَنا فيكبرُ في عيونِنا؛ يملأنا الزهوُ بجَدٍّ فنّان، ونروحُ نخطو هائماتٍ بما

جاء خَلقاً من بينِ أصابعه."

تتوقَّف قليلاً تطالعُ سحناتِ وجوهِهن وتقيس مدى اهتمامِهن بما تقص، فتراهنَّ في ذروةِ الولعِ، في وهجِ الاهتياج، في بستانِ الانصاتِ الرافل على خضرة الشَّدهِ والاندهاش، في رغبةِ أنْ تسرعَ في الكلامِ كي تدرك الخاتمةَ لأجلِ الوقوف عندَ مَحطة ماذا صنعَ الجدُّ، وإلى أينَ وصلَ في خلقِه؟

تقول وفي عينيها غيمةُ كَدَر:

"يوماً نحتَ غزالةً هزيلةً بجيدٍ نحيفٍ وعينين ذاويتين كسيرتين. هرعنا اليه نحنُ حفيداتُه لنعبَّر عن أسانا لحالِها. لم يفاجئُه حضورنا، إذ كانَ يعرف أنّنا نختبىء خلفَ الحلفاء نتابعُ خطوات نحته.. انبرت أشجعُنا تسأله بلسانِ الألمِ عن الغزالة. فقال إنَّها تعاني من جَفاءِ ظبيها الذي لم يقدِّر وفاءَها؛ كان الزهوُ في القِفارِ ديدنَه، وكانت اللامبالاةُ تجاه المواقف المصيرية من غرائبِ سلوكِه. فحزنت الغزالةُ، وحزنت، وذوت؛ حتى غدت هكذا. في خيالي تراءت لي أنَّها تموت من جفائِه؛ تموتُ من هجرِه الذي لا داعٍ له... أسمعُها تتساءل: "لماذا يدفعني إلى الهلاك؟ لماذا يزرع في قلبي الهوانَ، ويرمي بي إلى أشواكِ الشقاء؟"

وهل ماتت الغزالة؟ "سألنها بلوعةٍ وجوى."

"لا أدري.. الجدُّ أبقى ذلك سرّاً، أو أرادَ أن لا نرسو في مرساةِ الحزن فتبقى الحادثةُ محفورةً في ذاكرتنا.. ربَّما تكون الغزالةُ ماتت، فقد نحتَها ذاويةَ، مائلةَ العنق؛ في عينيها ألمٌ، ومن جفونِها تجري دموعٌ غزيرةٌ كالسيل."

واستمرَّت تقول، واستمرينَ يَنصُتن:

"ولقد حملَ جدّي السّرَّ معه إلى القبر.. كنّا نراه هو الآخرَ يذوي، وكان يميل بعنقِه واهناً خاوياً فيعترينا شعورٌ بالخوف عليه، ونخشى أنْ يموت كما ماتت الغزالةُ كما تخيلنا فنروحُ نسأله عما يحدث له وما الذي يجعله يسير الهوينى في مشيته، فكانَ يردِّد وهو لا يكاد ينهض، فيتهاوى:" إنَّ سنَّ الخمسين لقاسٍ على الانسان، وإنّ الستين لأشدَّ قسوةً وأعتى، خصوصاً ونحن عائلةٌ نولد بقلوبٍ ضعيفةٍ لا تقوى على أعاصير الزمان وأحداثه... ماتَ أبي بعمرِ الخمسين؛ ولحقه أخواه بنفسِ العمر. ومات أخي، والدُكِ، بعمر الثانية والأربعين. أنا مَن أرادت مشيئةُ السماء اطالةَ عمره فدخلتُ الستين؛ لكنَّ الستين أقسى وأعتى. به يزدادُ وعيُ الانسانِ بالموت.. إنَّ الموتَ صورةٌ مستنسخةٌ من صورِ الجحيم.".

"وأينَ هو الإزار؟"، هتف الرسّام بوجِه أمّه وقد أخذَ الشغفُ منه مأخذاً.

نهضت الأمُّ؛ ومِن بين طيّاتِ العفَش المتراكمةِ بانتظامٍ في

زاويةِ الغرفة سحبت مَدّاً صوفياً مُحاكاً فأفردته أمامَه، بطولِه وعرضِه.

راحَ الرسّامُ يتعثَّر بما يشبه الدهشةَ المتفجرةَ، بما يُقال عنه موقفٌ مباغِت... يتعثَّر بقرونِ غزالٍ متشابكةٍ فيوشكُ على السقوطِ على وجهِه.

تضحكُ أمُّه لمرآه مذهولاً.. لم تفقَه أنَّ قرونَ الغزالِ أحدثت كلَّ ذلك الموقف.

"ما هذا؟!!"

تردُّ الأمُ ، وهي لا تفقه أنَّه يَعرفه، إنَّما السؤال انطلقَ بلسانِ الدهشةِ والوقوعِ في مدارِ السِّحر:

"إنّه إزار."

وسط حالة الذهول التي طغت عليه راحَ يفرشه، فيداهَمُ بدوارٍ مباغت.. "يا إلهي، ماذا أرى؟!.. أيُّ خلقٍ هذا؟!.. أيُّ عالمٍ خرافيٍّ سالبٍ للعقلِ ومطيحٍ بالعاطفة؟!".

وكانت الأمُ وسطَ تعجبها من رؤيةِ ابنٍ مشدوهٍ، يُبعثرُ الكلمات ويتعثَّر بها: " نعم، هو إزارٌ.. نعم إزار، يا أمّي.. لكنَّه بدايةُ الجنونِ التي تأخذ بي إلى النجاحِ والتميّز.".

ولم تفهَم ما قالَ.. لم تُدرِك ما ضَمَر.

قال لها متوسلاً متضرعاً:

"أريدُ رؤيتَها.. هذه تعينُني في مهمَّتي."

كان قدِمَ من العاصمةِ ليلاً فنامَ متعباً.. وفي الصباح نهضَ مُبكّراً على تصبيحةِ أُمِّه له واعلانِها أنها أعدَّت له قيمراً مع الكاهي والكاستر فطورَ أول يومٍ من أيامِ عيدِ الفطر؛ وهو تقليدٌ جُبلت عليه العائلاتُ العراقية.

لا يدري كيف تناولَ فطورَه وانتهى، ولماذا استمرَّ الدوارُ يدوُّم في رأسِه حتى بعدما طوَت الأمُّ الإزارَ الذي كانَ بطولِ مترين وعرضِ مَترٍ ونصف.. دوارٌ أوقعُه في دوّامةٍ سوف لا تفارقُه الأيام الثلاثة التي سيقضيها قريباً منها.

لم تكن الروحُ لتبقى عَطشى وهو يَطلبُ من أمِّه الجواب. فقد حكَت له أمرَ سماعِها مِن فمِ المؤجِّرة عن فتاةٍ تستأجر بيتَها الصغيرَ بارعةً في صناعةِ الإزر، وتعتاش على ما تنتجه؛ فلَها أخٌ كان يسكن مع زوجتِه وهي معهما. ماتَ الاخُ والزوجةُ في حادثِ انقلابِ باصٍ أودى بحياةِ معظم الركاب، فبقيت هي وحيدةً لم تَعُد الى أهلِها في القرية.. قالت للمؤجرة:" اعتدتُ على حياةِ المدينة، فليسَ من الحكمةِ تركها.".

أسهبت الأم في الكلامِ والفنّانُ الشاب تعتلجُ دواخلَه... إنَّ القلبَ لفي لظى الشوقِ لمشاهدةِ الفتاة، وإنَّ الروحَ لفي اعتلاجٍ للقائِها.

المُخيلةُ تُخطِّط، وتتخيّلُ، وترسِمُ. والسؤال على مسمعِ الأمِّ

تبارى في كيفيةِ مشاهدتِها ولقائِها.

عصراً أخبرته الأمُّ أنْ ستذهب للمؤجرةِ تعرض عليها الطلبَ.

ولم يكُن العصرُ ببعيد.

ذهبت الأمُّ فقصَّت على المرأةِ أمرَ ابنِها الرسّام القادم من بغداد لقضاءِ اجازةِ العيدِ وتفاجئُه بحياكةِ الفتاة، وأملُه في لقائِها ليدخلا ولو لوقتٍ قصيرٍ حديثَ الفنِّ المشترك.

المؤجرةُ حكَت خَجلَ الفتاة، لكنّها تقبَّلت العرضَ، ووعدت بطرحِ الأمرِ واعدادِ اللقاءِ إنْ سيتُم بحضورِهما (مؤجرة وأم).

ولم يأتِ الصباح إلا وبابُ بيتِ الفنان تُطرَق؛ وغب الطرقاتِ يأتي اعلانُ الموافقةِ وتقبُّل العرض.

وكانت ساعةُ عصرِ اليومِ التالي ميدانَ لقاءٍ.

***

إنَّها فتاةُ التخطيطِ على ورقِ الرسَّام، تلك التي تلقَّت الدموعَ هاطلةً كالمطرِ على وجهِها.

***

حين تقابلا سقطَ كلاهما في بحيرةِ الشَّدهِ؛ وغرقَ الاثنانُ في ثَمَلِ الرؤيا.

كان لديها هو ذلك الشابُ الذي أبصرته مرَّةً في السوق

المسقَّف واقتطفته كأولِ ما يقطفُه القلبُ من زهرةٍ نثرت أمامَ عينيه غوايتَها، فاندفعَ مثلَ طفلٍ بهرتهُ لُعبةٌ ساحرة. وقفت تعترضه فلم يعرها اهتماماً ظنَّا منّه أنَّها حركةٌ عفويةٌ لفتاةٍ تمرقُ وسطَ زحامِ المارَّةِ المتسوّقين والمطالعين لواجهاتِ المعارضِ ومحتوياتها.. نعم هو ذلكَ الشابُّ الذي أسقطت كتابَه بقصدٍ؛ هو ذلك الذي حين ابتاعت الاصباغَ واستدارت ووجهت به يبعث إليها برسالة الابتسام مقرونةً بالإعجابِ بينما عاودَه الدوارُ لمشاهدتِها: هي !.. هي ! تلك التي أثارت غضبَه وأوشكَ على تعنيفِها لولا بهاءُ الوجه ومزنةُ مطرٍ نثرت رذاذَها على قلبه تلك اللحظة فخفَّفت من أوارِه واستبدلته بسماحةٍ تبعثُ على الانتباه والمودَّة.. هي ! هي! بابتسامةٍ تضيء وجهَها شاهدَها تبتاع الاصباغَ ولم يدُر بخلدِه أنَّها الساحرةُ المتعاملة مع الألوانِ انتاجاً للسِّحرَ الآسرَ للعيونِ والقلوبِ على حدٍّ سواء .

قالت له: "اسمي نبيلة."، فردَّدَ في سرِّه: "بل اسمُكِ غزالة."

وقال لها: "اسمي جلال."، فهتفت في قلبِها:" بل اسمُكَ بستان."

عرِف أنَّها لم تدخل اكاديميةَ فنون. فقط مَرحلة الابتدائية اجتازتَها بامتياز ثم توقَّفت في محيطٍ قروي ريفي لا يَرى في الدراسةِ غيرَ مضيعةٍ للوقت، وتفاهةٍ للبنات.. علِمَ أنَّها

تعلَّمت الحياكةَ من عمَّتِها. فنٌّ تدرَّبت فيه على تحويلِ الصوفِ إلى خيوطٍ، وارتواءِ الخيوطِ بالألوان... فالألوانُ مثيرةُ النظر، وفاتحةُ الشهيّةِ على الجَّمال.

يُطالعُها تتحدث بلسانِ الخَجلِ، لكنْ بثقةِ الفنّانةِ الموهوبة.. تقولُ الألوانَ وتأثيرَها. تشرح حركةَ الإبرةِ وتداخلَها، الأشكالَ المفترضةَ المتخيَّلة، اللوحةَ المُكتملة، المراجعةَ الأخيرةَ قبل العرضِ للبيع.

يستمعُ ويتملّى.. يطالعُ فيتساءل: "مَن هذي المصنوعة من عَجينةِ ملاكٍ؟.. كيف تجمَّعَ فنُّ الخالقِ بأجمعِه فصاغَها بلا أخطاء؟!

تمنّاها معه في مرحلتِه الدراسية.. خمَّنها ستكون مِن التميِّز والإبهار ما يجعل اساتذتَه يهتفون: يا لها من أميرةٍ تصنعُ السحرّ فتنثره غوايةَ جمالٍ وخفّة طرب!.. جمالٌ يتقاطر عليه عشّاقُ الفتنة فيتهافتون كالنحلِ على روضِ ورودٍ عامرٍ بفيوضِ الشَّهدِ وجداول الرحيق.. طربٌ يتثنّى على انغامٍ عِذاب تطلقُ الخفّةَ في النفوسِ وتهتفُ بالهناء.

أما هي فتطالعُه، فتندهشُ وتتساءلُ:" كيف جاءَ هذا الذي اختطفتُهُ مرةً من بين ثنايا الحلمِ ليطرق بابي ويقفَ أمامي مُعجَباً؟!

يُخطىء مَن يظن أنْ لا سطوة للأقدارِ على سيرِ حياةِ

البشر؛ وواهمٌ ذلك الذي يرسم خارطةً لحياتِه ويقول هي ذي وجودي القادم بكلِّ فضاءاتها وتضاريسِها وخطوط طولها وعرضها؛ وليس لأحدٍ القوةُ على تغييرها. ذلك أنَّ الاقدارَ بياناتُ السماءِ في تحديدِ حريةِ الانسان، وهي الفاعلة في تكبيلِه أو تطويقِه ليكون داخلَ حلبةِ هيمنتها.

تلكَ الليلةِ وبعدٍ لقاءٍ مطولٍ مع نديم وحديثه عن ضرورة ان يخلد رفقته لاخماتوفا بلحنِ أغنيةٍ من شِعرِها وتقديمِها بصوتِ امرأةٍ شَجي أخبرَ أمَّه أنْ سيختلي في غرفته، طالباً أنْ لا يَقتحمَ أحدٌ الغرفةَ أو حتى ينقرَ على خشبِ الباب.

تلك الليلة سحبَ الإزارَ من بين طيّات الأفرشةِ المرصوفةِ وبسطِه على الأرض ليتمعَّن بها بأناةٍ، ليطالعه برويّة، ليسوح بشغفٍ ويحاور بوَلهٍ، ليرتشف رحيقَ الألوان ويستمتع بزهوِ اللذة.. التقطَ الاشجارَ المحتشدةَ بعينه؛ مرَّ بلوامسِ أناملِه على العشبِ الأخضر. توقَّف عند الظبي وقرونِه المتشعبةِ وتفرَّس بعينيه الدائريتين الصفراوين. توقَّف عندَ الغزالة؛ أرسى نظرَه على الجيدِ والقوائم الأربعةِ المستدقة. أغراه حشدُ الشياه في زاويةِ الإزار فراحَ يتفرَّس في دقَّةِ تجسيدِها، مُتسائلاً بقلبِ الفضول عن مَهارةِ الابرةِ وانسيابيةِ الخيوط في انتاجِ السِّحرِ الغريب.. الشمسُ تُعلِن تكسَّرها على حافاتِ العشب. وفي ساقيةِ الماءِ تتراقصُ مع التموّجات بينما قرونُ الظبي تشعُّ مثلَ

الذهب.

تمازجَ كلُّ هذا؛ ومعها تفاصيلٌ تغلغلت من بين ثنايا الإدهاش فذابت في بوتقةِ الروح.

في اليوم التالي، في ساعةِ ضحى متوهجةً نقرَ على الباب وفي اعماقِه اصرارٌ على محادثتِها.. اصرارٌ على اكتشافِ ما انتجت من إزرٍ جديدة: ما عندها حالياً، وما باعت؛ ولِمن باعت.

إنَّ الانبهارَ بفنِّها يتناسلُ في رأسِه، وما انتجت لا بدَّ مِن الاطلاعِ عليه.. يدرسُه ويستقرؤه.. يتحاورُ معه ويتماهى به .. إن أعمالَه التي سيشرع بها ستكون من تأثُّرات إزرٍ هذه المغمورةِ في ثنايا الاهمال... اعمالُها ارادَتها حرفةً للعيش؛ واعمالُه يُريدُها وسيلةً للشهرة.

أليسَ الفنُّ كبرياءٌ وعظمة؟.. أليسَ النجاحُ بقريب؟

استقبلته بترحابِ القلبِ وهفوِ الروح؛ وكانت حلُمت ليلةَ البارحة أنّها وإيّاه كانا يقطعان شارعَ الكورنيش ليلاً فيشاهدان من عتعتهم الشوقُ للأحبّة، ومن فتحوا العيونَ على الحياةِ فوجدوها ليسَت لهم؛ ومن عاشوا فقدَ الأبناءِ في حُروبٍ متوالية لا طائلَ منها ولا انتصارات؛ ومن هَجرَه النومُ فاستعان بالتمشّي جوارَ الشاطئ لعلّه يهبه نسمةَ الرغبةِ في النومِ فيعودُ في شوقٍ للوسادة يرمي عليها رأسَه ويرحل على جناحِ طُمأنينةٍ

غائبة.

قالت له، وهي تتشرَّب سحنات وجهِه الجميل: "المصادفاتُ وردةُ سرورٍ يقدّمها الغيبُ للإنسان."

لم يفقه ما قالت، شاعراً أنَّ كلماتِها مُغلفةٌ ببوحٍ دفين؛ لهذا قال: "زيدي كَي أفهَم."

فطفقَت تحكي مشاهدتَها له لأولِّ مرَّة، وتقصّ أنَّ القلوبَ سواقيَ تجري، وأنَّ الأقدارَ تَضمرُ خفايا كثيرةً، منها أنّه جاءَها على قدميه إلى البيت في حين كانت تتمنّى مجيئَه طيفاً.

شربا قهوةً مُرَّة مقرونةً بحبّات تمرٍ تأتي بها من القرية؛ من بستانِ الجَّد الذي تركه عامراً للأَحفاد... اقتطفت عيناه ماكنةَ خياطةٍ وخلفها ستارةً سمائيةَ اللون حيكت عليها ورودٌ في مزهريات؛ وقريباً منها عصافير وفراشات، غزالات وظباء... أعلمتهُ بمجرَّدِ اكتشافِها نظراته المُرسَلة الى داخلِ الغرفة أنّها تخيِّط ملابسَها بنفسِها، وأنَّ الستارةَ اختارتها بهذا اللون لأنَّها تحبُّ لونَ السماء؛ فلونُ السماءِ فيضُ الصَّفاء في نظرِها. أمّا الورودُ والمزهريةُ والطيورُ والفراشاتُ والغزلانُ فأخبرته أنَّها حاكتها في قصناعٍ صغير.

أدخلته الى الغرفةِ التي تمارس فيها فِعلَ الحياكة. كان فضاءُ الغرفةِ يعجُّ بالبساتين فأحسَّ كأنَّ البساتينَ تندَه به،

فقـرّر تلبيـةَ النـداء وهـي تفـرشُ إزاراً وتطـوي آخـر... كانـت غايتُها أنْ تُريه ما تحسبُه الأجملَ، وهي لا تدري أنَّه أدركَ ما يأتي من بينِ أناملِها يمثلُ الجمالَ بكمالِه وهيمنتِه.

كان فضاءُ الغرفةِ يجيشُ برائحةُ البساتين فعلاً، برقصِ السنابلَ، خضراء ككورالٍ لفتياتٍ جمعتهنَّ ذائقةُ مُخرجٍ يهيمُ بالموسيقى ويغرمُ بلغةِ الجسدِ؛ بشذا القدّاح وهو يحتفي بعنفوانِه فيرتمي على السواقي ليذوبَ في دفقِها. تحسَّسَ موجاتِ انسامٍ بعثها سعفُ النخيلِ فمرَّت من أمامِ وجهِه.. أرادَ أن يقول:" كأنَّني الآن في بستانِكم؛ هنالك.. كأنَّكِ معي أو أنا معكِ مثلَ طفلٍ يقرأ لغةَ البساتين لأولِ مرَّةٍ، وأنَّه يريد الانفلاتَ بعدما شبع من التقاطِ الأشياء.

إنَّه يتمنَّى الفرشاةَ والقماشةَ والألوانَ ليجعلَ غرفتَها مَرسماً كي ينتج لوحةً ستتبدَدُ إنْ لم يقتنصْها اللحظةَ.

إنَّ ومضةَ فكرةِ الرسمِ كومضةِ فكرةِ الكتابةِ، إنْ لم تصطادَها وتجعلَها بحوزتِك هربت منكَ وتلاشت، ولن تُجدي محاولاتُ تذكّرِها واستعادتِها.

قليلاً وأتت بعددٍ من الشراشف التي تحتفظ بها وقد حاكَت عليها ما نمَّ عن ذوقٍ عارمٍ بالفتنة والسحر.

سعُدَ لما رأى؛ لكنْ ليس هذا الذي يتمنّاه.

عرضَ رجاءَ أنْ تُطلِعه على أيِّ إزارٍ تنتهي منه قبلَ بيعه،

فقبلت الرجاءَ بوعدِ المُحبّين.

أمّا هي فكانَ رجاؤها أنْ يتصل بها ويزورَها عند قدومِه إلى أهلِه. فكان العهدُ.. والعهدُ ميثاقُ الصادقين.

***

إنَّها فتاةُ التخطيطِ على ورقِ الرسّام، تلك التي تلقَّت الدموعَ هاطلةً كالمطر على وجهِها.

***

عُرِفَ عنه رساماً، يكتبُ الأشياءَ ألواناً.

ابتدأ فتوتَه عاشقاً للقلمِ الرصاص وهو يخطّطُ الوجوه ويرسمُ الاخاديدَ في الجباه وأسفلِ الأجفانِ وعلى الرقابِ العِجاف لأشخاصٍ يراهم أكثرَ تعبيراً في رسمِه من غيرِهم. وكانَ الأقرانُ معَه والصحبُ يغرقون في الدهشةِ ويفغرون أفواهَهم تعجُّباً لما يُخطط مثلما يتمنّون لو أنَّ باستطاعتِهم التخطيطَ كما يَفعل.. كانت تخطيطاتُه تبدأ بخربشاتٍ وخطوطٍ مبهمةٍ ما تلبث أنْ تتجلّى شيئاً فشيئاً مُفصِحةً عن تشكيلٍ يبثُّ مواصفاتِ الفتنةِ، ويُظهر خَلقاً ينمُّ عن الاعجاب.

يقولُ لصديقِه نديم:" أنتَ موسيقي ترسمَ الأصواتَ بالنوتات، كما الشاعرَ يرسمُ قصيدتَه بالكلمات، كما الرسامَ يكتبُ نصَّه بالفرشاة."

اتَّجه للأكفِّ يرسمُها بالقلم الرصاص فيُظهِر تحدُّباتها واستقاماتِها، انبساطَها وانقباضَها، أصابعَ نحيلةً وأصابعَ ممتلئةً؛ أظافرَ عريضةً وأخرى طويلةَ مستدقة؛ ظاهرَ كفٍّ أعجف وظاهرَ كفٍّ لدنٍ؛ بطونَ كفوفٍ تتقاطع فيها الخطوطُ وتتوازى. يتفرَّس معلمُ التربية الفنية في ما يرى فيذهل. يندهش لهذا الفتى النحيل يأتي السِّحر من فِعلِ انامِلِه "كيف تأتيه المَلَكةُ فتصنع كلَّ هذا الإبداع المثير؟ " يتساءل!.. وكان هذا السؤال نفسه هو ما قاله مدرِّس الفنية في مرحلةِ الدراسة المتوسطة. ومع بدءِ دراستِه في المرحلةِ الاعدادية كانت الألوانُ الزيتيةُ طيّعةً تتداخل في خيوطِ فرشاته فتحتّها على الأداءِ الخرافي.. وحين يضرُب بها على قماشةِ الجنفاص تتشكَّل مَخلوقات تولِّد الشَّده، تصنع الاعجاب، تثير دواخل الناظرين.

كان يرسم الأشجارَ؛ فللأشجارِ رمزيتُها.. الدالُ الذي يصنعُ المدلولات: هي عندَ السومريين رمزُ النَّماء والثراءِ والزهو، وهي عند المسيحيين في عمومِ جغرافية الأرض أيقونة للاحتفال والاحتفاء والبهرجة مصاحبة لطقوس الميلاد السعيد، وهي عند الانطباعيين صفحةٌ من هويةٍ يضمُّها كتابُهم المحتفي بالطبيعة في الهواء الطلق، وعند بريخت هي انسانٌ يتمسَّك بفكرتِه ولو على حسابِ حياته، هاتفاً:"

الاشجارُ تموتُ واقفة.".

أشادَ به مَن تطلَّع لرسوماته، ووقفَ الكُثرُ مِمَّن أحبَّ الألوانَ وعشِق الحيواتَ الرافلةَ على مساحاتٍ يحدُّدها الإطارُ بينما يتلقّى نظراتُ الحَسَد مِمَّن يمتلكون أنصافَ أرباعِ موهبتِه وذوقه؛ ومِمَّن لديهم بقعةٌ صغيرةً من روضِ الجمالِ العذِب الذي يشيع داخله.

في الاكاديمية التي قُبِل بها بترحابٍ درسَ المذاهبَ الفنية ومدارسَها، جذورَها وتأثيرَها، روّادَها ومريديها.. درسَ الكلاسيكيةَ، والرومانسيةَ، والطبيعيةَ، والواقعيةَ .. درسَ الانطباعيةَ وما تلاها من تكعيبيةٍ ووحوشيةٍ.. درسَ المستقبليةَ، والسرياليةَ والتجريديةَ... اثراه اساتذتُه بهاته الاتجاهات فاكتسبَ ثقافةً سارت بموازاةِ عشقِه للونِ والضوءِ، ومعهما الفرشاةِ والقماشة.

لاشكَّ أنَّ الانطباعيةَ أسرته، فذابَ في بحيرةِ ألوانِها، وهامَ عشقاً بضوئِها.. وجد فيها رسالةَ البهاء والأسطر التي تشعُّ بالعشقِ والولِه والبهاء.

"أنا عاشقٌ لا ينتهي." كان يقول... ومعه يترنَّم بدندنةٍ: "عاشِقُ الهوى طَرِبُ، يتهادى كنسمةٍ جَذِلُ".. ثم يتمتمُ كأنَه يبغي اسماعَ رفيقٍ يُرهف السمع له: "الانطباعيةُ هويتي، بيرقُ الحالمين بالسلامِ، والوئامِ، والحُب... أنا ابنُ الطبيعةِ وظبيُها

الرافلُ في البراري بحثاً عن غزالةِ النجاح.. يحبُّ الفيوضَ وينعُمُ بشمسِ الضحى تهبهُ صكَّ النقاءِ دفئاً، وميساً، وخيلاء.

تابع الانطباعيين، وهامَ في ملاحقةِ آثارِ خطاهم... جلسَ مع مانيه، وزار رينوار في بيته. أوقف بيسارو عند "غروب الشمس في آيروني"، وقال يسأله:" من أين تأتي بسلالِ السِّحر وفاكهةِ الفتنة؟! ". لم يُجبه بيسارو بالكلمات. فقط أشارَ إلى كرنفال الأشجار بسبابته، ودارً بنظره حولَ المكان. جعلَ عينيه تمسحان حركةَ انهماكِ الأبقار في تناول العشب، قريباً في وسط اللوحة؛ ومرَّر نظرةً للقشِّ المعمولِ تلاً، وللفتاةِ المنشغلة بدفعِ عربةٍ تجمع غلّة.. ترجَّى بول غوغان مجالسةَ العائلةَ المستمتعة بـ"قيلولة"، واستسمحه النهلَ من نهرِ الألوانِ الداكنةِ بتنوّعاتِها وحيويتها، هامساً في أذنه: " دهشتُك تكمنُ في خلقِ ألوانكِ الخاصة."... حضرَ لحظةَ استشهاد فردريك بازيل في جبهةِ الحربِ الفرنسية-البروسية، وطالعَ جرحَه العميق ثم تأسّى على انطفاءِ شعلةِ فنٍّ كانت ستضيئ مساراً فنياً لو قُدِّر لها التوهُّج.

إنَّه يريد أنْ يصبحَ مثل هؤلاء، لكنَّه يبغي مَساراً خاصّاً يُعرف به... يريد أنْ يكوِّنَ بصمةً تُمثله هو لا غيره كالفنانِ الكولمبي فرناندو بوتيرا الذي جعلَ من الأجسادِ البشريةِ الممتلئةِ والمستديرةِ لافتةً وهويةً له، صار العالمُ كلُّه يعرفه

من نماذجِه، من شخوصِه، واشيائِه المُمتلئةِ بدانةً، ولكن بحيويةٍ وأداء جَم.. يريد أنْ يتبارى كستار كاووش الذي اختطَّ لنفسِه طريقةً في الفنِّ التعبيري الممزوج بحداثةٍ تجمع الروحَ الشرقيةَ بالحياةِ الغربية، فصارت طريقةٌ تمثِّلُه، ويُشار بها اليه؛ كزياد جسّام ومشروعِه التشكيلي بالرموزِ البشريةِ الثنائيةِ الجنسية "رجلٌ وامرأة" في حالةِ عشقٍ وعِناق.. رجلٌ وامرأةٌ انتفت عنهما الملامحُ فجعلَهما الرسَّامُ رمزينِ كَونيَّين؛ هويتُهما الانسانيةُ، بلا عِرقٍ أو جنسٍ، ودونَ قوميةٍ أو مذهبية.

نهض على ايقاعِ نداءِ مونيه بأنْ يأتيه سريعاً فقد علِقَت الصنّارةُ في عمقِ نهر السين بمواجهةِ الزوارق الشراعية. واستمرارُ تعلّقها وعدمُ استخراجِها يعني التأخُّر عن لقاءِ الصحب في غابة فونتيبلو، لذا عليه أنْ يهرع فيخلع ملابسَه ويرمي بنفسِه في النهر والغوص إلى الاعماق لفكِّ اشتباكِ الصنارة دونَ الاهتمامِ بأرتالِ الأسماكِ السارحةِ في بهرجةِ يومِها بعدما ذابَ الثلجُ من سلسلةِ الجبالِ التي تشكّل افقاً في الشرق، وأغدقت الشمسُ بعضاً مِن دفئِها على ماءِ النهر فغدا لطيفاً يدعو مخلوقات الأعماق التي سبتَت طيلةَ فصلِ الشتاء إلى الاحتفالِ بحياةٍ متجدّدةٍ توافقاً ويناعةَ النباتات المائية التي انتعشت هي الأخرى فنهضت، فاستطالت، فراحت تتعالى

إلى السطح تعانق وتقبّل ضوءَ الشمس الساقط على المُسطّح المائي المُنساب بروية.... قال له مونيه بلسانِ الأستاذِ المُشبَّع بفنِ الخلقِ والخبرة: الزمنُ ليس الدقائقَ والساعات، ليس اليومَ والأسبوع والشهر، ليس السنةَ والقرن والحقب الفائتة أو القادمة من أعتابِ الغيبِ؛ انّما هو اللونُ والضوءُ، القماشةُ واللوحةُ، الصداقةُ والرفقةُ الصافية، الحبُّ والهيامُ، الحزنُ الآتي على جناحِ غيمةِ القدر، الفرحُ الذي تفشيه وردةٌ تهتفُ بالعطرِ.. إنّنا محاطون بالزمنِ؛ مُفعمون بالمكان، وهذان يصنعهما اللون والضوء... المَكانُ هويةُ الزمنِ حين تمرُّ القرون.. الزمانُ ترجمتُه بركةُ ماءٍ تحتفي بجيشِ الورود على سطحِها، وترجمَه رينوار حديقةً ورقصاً ومصابيحَ مُشعَةً على أعمدةٍ وكراسيَ مشغولةً بالأجساد يتماهى مع طبيعةٍ ساحرةٍ محتفيةٍ بالفساتين الباعثة على الأُبَّهةِ والجلالِ في حفلِ طاحونة لاغاليت، وترجمَه ألفريد سيسلي ورداً مُستدرِقّة السيقان تنهض فرادى، بينما آثر بول سيزان جعل المكان يتماهى مع طبيعة صامتة وشيئيات تقول نفسها في محيطٍ ساكن.

أمّا هوَ فصحيح أنَّه عشِق الانطباعيةَ وجعلَها المدرسةَ التي يروم الخروجَ من معطفِها؛ وصحيح أنَّ اللونَ والضوءَ ظاهرتا الجمال المبثوث في اللوحة وأنَّهما هتافا الانطباعية وهويتُها؛

وصحيح أنَّ الطبيعةَ مادةُ الانطباعية وموضوعُها، لكنَّ الصحيحَ أيضاً هو أنَّ ما يبغي تقديمه مِن فنٍّ يمتحي من الانطباعية هويةً ومن موضوعِه الفرداني ورؤيته اتجاهاً يخصُّه.. وهذا ما كان يبحثُ عنه ولم يعثر عليه.

ويوم تبارت موسيقى الطبيعةِ تتعالى بتلكَ الألوانِ الراقصةِ في الإزار الصوفي الذي شاهدَه في بيت أهلِه راودَه شعورُ الامساكِ بخيطِ النجاح. فصمَّمَ على جعلِ فحوى الإزار وغرابةِ الألوان مادتَه في اللوحةِ القادمة التي سيشارك بها في معرضِ الاكاديمية. المعرضُ الذي تنتظرُه الصحافةُ الفنية لتلقي ضوءَها على المعروضات وتكتشف المواهبَ البازغةَ للطلبةِ المشاركين إلى جانبِ أعمالِ اساتذتهم.

وكانت لوحتُه المشاركةُ مستوحاةً من موضوعةِ الإزار ومادته.. تلك التي توقَّفَت عندها لجنةُ التقييم مبهورةً، وتعالت هتافاتُ الإعجابِ من الطلبةِ والاساتذةِ وزوارِ المعرضِ مِن ذوي الذوقِ الفنّي الرفيع.

وكانت إنْ تناولت الصفحاتُ الفنيّة لصحفِ البلاد فحوى اللوحة، والموضوعَ المُتعلِّقَ بانطباعيةِ ريفِ العراق وكيف قدَّمَه الفنانُ الشاب بتقنيةٍ مُبهرةٍ، وألوانٍ خارجةٍ عن المألوف بينما تولَّت المجلاتُ المتخصِّصةُ اللقاءَ معه وطرحَ اسئلةِ الدهشةِ كتعبيرٍ عن غرابةٍ امتازت بها اللوحةُ شملت التكنيكَ

والألوانَ وجمعَ العناصر من بيئاتٍ مختلفةٍ وجعلها كما لو كانت تتقبَّل بيئةً واحدةً مُبتغاة.

وتكرَّر سؤالٌ ألقاهُ عليه المتحاورون بأوقاتٍ متفاوتةٍ عن التأثرِ والمصدر الذي ألهمَه.

ماذا يقول..

إنَّه يريد لمتلقّيه ادراك أنَّ مصدرَ ابداعِه موهبتُه، والإلهامُ يأتيه كرؤيا. أمَّا التأثّرُ فيأتي من التجربةِ الحياتيةِ وتتبَّع الفنانين العِظام.

ووصلتها أخبارُ نجاحِه عن طريقِ نديم، فسعدت وأرتْها البهجةَ.. استدعت صورتَه ففرِحت.

***

إنَها فتاةُ التخطيط على ورقِ الرسام، تلك التي تلقَّت الدموع هاطلةً كالمطر على وجهِها.

***

لقد كان حضورُه وانبهاره بحياكتِها وفنَّها فاتحةً لولهٍ شرعَ يزداد، فبرعت في الرسمِ المُحاك بخيوطِ لهفتِها اليه... بَرعَت في انتاجٍ ليس الغرضُ منه المردودَ المادي الذي يُعينها على العيشِ مِن ساعدِها المفتول انَّما هذه المرَة للتعبير عمّا يَعتمل في القلبِ وما يجيشُ في الخاطر.

إنَّ الدوافعَ الذاتيةَ المنبريةَ مِن مَشاعر الانسانِ كثيراً ما

تصنع النتائجَ الخلّاقة، ووفيراً تشكّل المعجزاتُ ما يجعل السؤالَ المنبثقَ في النفوس المندهشةِ شهادةَ اعجابٍ لا يُبارى.

حاكَت ثلاثةَ ازرٍ ولم تبعْها إلا حين قدِم من العاصمة وزارها بعد ساعةٍ من وصولِه مَدفوعاً بالشغف لما انتجت؛ فلَه بعد شهرٍ معرضٌ مشتَركٌ مع استاذِه الذي قال له:" اخترتُكَ معي لتشاركني مَعرضي لأنكَ رسمتَ لوحةً كنت فيها جديراً بالإشارةِ إليك كنجمٍ مَستقبلي وضّاء."

فرشت أمامَه الإزر الثلاثة فعاوده الدوّار الذي حصل له يوم شاهدَ أولَ إزار "وكانت فراشةٌ تبقّع أجنحتَها ألوانٌ باهرةٌ تائهةٌ داخلَ الغرفة؛ ارتفعت الى المصباح الأصفر المتدلّي من السقفِ فهرَبت مِن فخِّ الحرارةِ والتوهّجِ حالَ اقترابِها ومقاربة تماسِّها له؛ فكَّرَت بالهربِ والعودةِ إلى عالمِها البستاني اليانع. هربت هابطةً تطوفُ فوقَ السرير ثم حامَت حولَ أعلى اطارِ المرآةِ المستطيلةِ لِصقَ الحائط، وهبطت قليلاً لترى قرينةً لها تهفهف بأجنحةٍ بقّعتها ألوانٌ باهرة.. أرادت الاستنجادَ بها وسؤالَها عن دربِ الخَلاص فتعثّرت بالقرينةِ على السطحِ الأملس، ولم تُعِنها على محنتِها.

وكان الفنانُ الولِه ارتمى على كرسيٍّ يجاور سريرَ مستقبلَتِه فانذهلت لاصفرارٍ اعتراه.

هرعت تأتي بماءٍ رطَّبت به شفتيه ورشَّت رذاذاً على وجهِه؛

ثم دعته لارتشاف جرعةً تُبعِد جفافَ اللسان، واستدارت تعمل له قهوةً أغدقت عليها سكّراً زائداً، أتَت بها فاحتساها بشعورِ مَن يحتسي شهداً ملوكيّاً ويجعل منها الطعامَ الذي له رمزيته في العُرف العشائري. فمَن أطعمك لابدَّ من الوفاء له، وأنت تردد "أكلتُ من زادِه يعني أصونَ عشرتَه."

لقد ظنَّت أنَّه مريضٌ فانجرحَ قلبُها بشفرةِ الألم.

كادت تهتف: "حبيبي! حبيبي.. هل أصابكَ من ضرر؟!"؛ مُستذكرةً تلك القصيدة التي حفظتها سنةَ كانت في أواخر المرحلةِ الابتدائية، عن تلك الأم التي شقَّ ولدُها صدرَها واقتلع قلبَها وهرولَ باتجاه أبيه الذي دعاه لارتكابِ فعلتِه البريئة لينالَ ثناءَه عندما تعثَّر وتأوَّه، فراحَ قلبُ الأمِّ يسألُه بحرقةِ أعماقٍ: "ولَدي، حبيبي.. هل أصابَك مِن ضَرر؟!"

وكانت عودتُه الى العاصمة ميمونةً... قضى اسبوعين منهمكاً في انتاجِ لوحاتٍ ثلاث دُهلَ استاذُه لمشاهدتِها بعدما اقترح عليه المساهمةَ بها في المعرضِ المشترك... قال له استاذُه وفي دواخلِه تنامى مقدارٌ من الحسد :" ستخطفُ الأضواءَ التي اعددتُها لي، وستجعل عدساتِ الكاميرات تتسابق عليك.. سأكون أنا استاذك الرقم ٢ .".

راحت تُجهِد نفسَها في رسمِه.

تساوقت لديها المخيلةُ بجعلِه المُرتجى خصوصاً عندما

اتَّصل بها يخبرها أنَّ لوحاته أغرقت مشاهدي المعرض بعذيبِ اللذاذة، وأمطرتهم بحبيباتِ لقاحِ الهيام، وأنَّه في شوقٍ لزيارتِها، قائلاً: "سأكونُ قريباً عندكِ."

إنّ القلبَ لَفي سَعدٍ، وإنَّ الروحَ لَطماعةٌ في نيلِه وامتلاكِه.. إنّه مَلاكُها؛ وهي الانسانةُ الباحثةُ عن فيوضِ التَّملِ العذيب.

"هو ملاكي." تقول "فلا تبخلي أيتُها المخيلةُ في تجميله.. دَعي صفاتَ البهاءِ تتجمَّع لتثُثَّ أرائجَها نثّاً على وجهِه، فليس لقلبي غيرُ الجَّمال مُراداً، ولا لروحي غيرُ طلَّتُه مَبعثاً للاسترخاء والرحيل على جنحِ فراشةٍ ترفرفُ في فضاءٍ من الحبورِ الخرافي."

وهي تتعاملُ مع الإبرةِ ومجموعةِ الخيوط الصوفية المُلونة أجهشت، وقد استعذبَت فكرةَ البكاء، مرتضيةً بشغفِ ذلَّةٍ تتجسَّد أمامَ عينيه... ردَّدَت في سرّها: لكَ وحدك وجدتُ في الذلِّ ميدانَ قَبول، وإليكَ مشيتُ على ايقاعِ امتلاكِك ولو في الخيالِ، وأنتَّ ظلّي."

لم يكُن هناك ما يُبرر حالةَ تعذيبِ الذات، واستمراءَ لذَّة الألم لأنّه عبر الهاتف مراراً سَمِعَها: "لولاك أنا يتيم."

وهي عبارةٌ فاهَ بها رسول حمزاتوف بشغفٍ وهو يخاطبُ الشِّعرَ الذي جعلَ منه مُعبِّراً ومَعبْراً أصيلاً لعشقِه لبلده

داغستان، وصنعَ منه شاعراً مُلتصقاً بوطنِه... وصار جرّاء ذلك شاعرَ داغستان الأول. فأصدرت حكومتُه طابعاً بريدياً يحمل صورتَه بوصفِه فَخراً داغستانياً يباهون به العالم.

وجاءها صديقُه نديم بالأخبارِ المُبهجة.

جاء وبيده صحيفةٌ قدَّمها اليها، وقال طالعيها... كانت الصحيفةُ خصَّصت صفحةً كاملةً له ولنجاح معرضه. في الصفحةِ طالعت صورتَه مُبتسماً مع مُعدِّ اللقاء المتوجّه اليه بالأسئلةِ؛ ولوحاته الثلاث المشاركة في المعرضِ مع أُستاذِه.

تذكَّرت كلماتٍ قالها كالهمسِ وهو يُعبِّر عن دهشتِه لعُظمِ موهبتِها وبهاءِ احساسِها في التعبير: "ليس كلُّ الذي مسَكَ الإبرةَ وتعامل مع الخيوط أتى بالفتنةِ والإبهار؛ ولا كلُّ مَن استخدمَ الفرشاةَ أسرَ قلوبَ المشاهدين بسحرِه.. فالتأثيرُ العميقُ في النفوسِ خَلقٌ يجيءُ من قراراتِ ارواحٍ تُنافِس الملائكةَ في رهافتِها."

ابتسمت ابتسامةً غامضةً؛ مُدرِكةً أنَّ نجاحَهُ في فحوى لوحاتِه وألوانه مَشفوعةً بالضوءِ والظلِّ مُستَمدٌ من فحوى وألوانِ إزرها.

قرأت بعضاً من آراء المشاهدين تشير إلى جعلِه أدواتِ الانطباعية وعناصرَها مدرسةً تشكيلية جديدة بينما قرأَت ما صرَّح به النقادُ واشارتهم إلى أنَّ ألوانه أدواتٌ تصنعُ سحراً

غريباً وغامضاً، وأنَّ خلقَه لذو تأثيرٍ عجيب.

إنَّ الفـــنَّ مدرســـةٌ، وأنـــك نـــاظرٌ بـــارعٌ في ادارةِ هاتيـــك المدرسة."، ذلك آخر ما أجمعَ عليه النقادُ من جُملةٍ تليقُ بفنِّه.

وهي تنتهي من قراءةِ اللقاء آلمها عدمُ اشارتِه اليها؛ بل جُلُّ ما احتوته اجاباتُه هو الاعتدادُ بموهبتِه واعلانُ سعيه لخلقِ مَدرسةٍ جديدةٍ تحقّق تأسيسَه وتؤكِّد ريادته، وتجعل مريديه يتَّبعون خُطى خلقِه وينهلون من نهرِ ابداعه.

(٤)

كنتُ انظرُ إلى القطراتِ التي التمعت في ضَوءِ البرق"
وهي تسقطُ واتنهَّد كلَّما تنفسَت. وكنتُ كلَّما أفكّر،
أفكرُ فيكِ أنتِ يا سوزانا."

بيدرو بارامو.. خوان رولفو

بعد ساعةٍ من خروجِ نديم استيقظَ الرسَام فوجدَ الليلَ يجثُم بعُتمتِه. وكان ظنَّهُ النهار. فالنهارُ ينتشلُه من مُحيطِ أوجاعه، ويمنحَهُ فسحةَ اتقاءٍ سهامِ الندم المتوالي باتجاه قلاعِ ذاكرتِه المُهشَّمة.. إنَّ الندمَ شهادةُ اعترافِ المُنهَزِم؛ والهزيمةُ تاريخٌ لا يمكن مَحوَه، أو حتّى تجاوزه.

استيقظَ فوجدَ نديم قد تولّى مَهامّه هو بالتنظيف والترتيب؛ ووجدَ قصاصةً كتب فيها:"إنْ رغبتَ اللقاء تجدني في مَقهى السهارى."

لولا الجزعُ الذي يعتريه، ولولا الكَمَدُ الذي فيه لعاودَ نومَه، لكنَّه نهضَ باتجاه المَغسلة.. هناك طالعَ المرآةَ المربَّعةَ فشاهد وجهَه يجمع الشحوبَ، وعينيه تفضحان عُظمَ الخيبة.

غسلَ الوجهَ ومشَّط الشَّعرَ الطويل. فرَّش اسنانَه سعياً

لطردِ رائحةِ النبيذ التي كلَّست المرارةَ تحت لسانِه وبين اسنانِه. قَصدَ الثلاجةِ، فأخرجَ قارورةَ ماءٍ باردٍ افرغَ محتواها في جوفِه.. استبدلَ ملابسَ أرادها فضفاضةً تتوافقُ وفسحةُ الليل.. وخرج.

إنَّ البقاءَ في الشقّة يصنعُ المرارةَ بينما الخروجُ تَحرُّرٌ من قيودِ الجزع.

في الخارج كان الليلُ راكداً، والآهةُ الفالتةُ من صدرِه ثقيلةً.

كان شارع الكورنيش الذي تلقّى أولى خطواته رؤوماً، يفردُ ذراعيه ترحاباً بالمتألمين المجروحين.

إنّه يشهد بعضَ المارّة؛ أولئك المنبعثين من وادي الأُلفة، المتخذين الرصيفَ القريب من الفرات مَسلكاً يجارون فيه عتمته وهو ينامُ خاملاً كأنه لا يجري (يقتصرُ الخمولُ في جوهرِه على شعورِ المرءِ بتفاهةِ الحياةِ ولا جدوى وجودِه في كينونةٍ مُلغَزة.)

عبرَ الشارع إلى الجانبِ الآخر المُطل على النهر.

اتكأ على الدرابزين النيكلي، مُسترجِعاً ذلك الاستقبال المُشبَّع بالشَّغَف تمطرُه عيناها العاجّتان بالفرح لمَقدَمِه.. هبَّت إلى إزارٍ انتهت من حياكته، صانعةً بخيوطِها حياةً يمتزجُ فيها الواقعُ بالمتخيَّل.

كان الألق يطفو في نهرِ روحِها العاشقة وهي تفرده أمام انظاره، وتقول: "لقد اطلعتُ على مَعرضِك الأخير."

وقبلَ أنْ يسألها كيف عرفتِ عاجلته:

"أفردت لكَ مجلةُ فنون أربعَ صفحاتٍ جعلتني أعوم على غيمةٍ من الزهو."

تحرَّكت الى خزانةِ ملابسِها. أخرجت المجلةَ بغلافِها الملوَّن المُبهرج يمتلىء بلوحةٍ فيها بستانٌ وغزالة.. فيها ساقيةٌ وظبيٌ نافرٌ ينتصب عند حافتِها.. فيها شمسٌ تنثرُ ذهباً، وممشىً ترابيٌّ يقودَ الى بيتٍ ريفي مفتوح النوافذ الخشبية على مصاريعها. وثمَّة امرأةٌ تمطرُ بذوراً لدَجاجٍ يقترب منها، يتأهب للالتقاط... وكانت الزاويةُ اليسرى السفلى تحمل اسمَه وتوقيعَه بلونٍ فسفوري يبرق.

انغمرَ بالزهو لكلامِها، ولم يقُل ذلك هو تأثري بخلقِك. لم يقُل: إنَّني أنهلُ من فيضِ الفنِّ الرفيع، تأتي به ذائقتُك وتوزّعه سحراً وجمالاً وجلالاً على الناظرين. لم يقُل الاحتفاءَ بالطبيعةِ في لوحاتي يجيء من احتفاءِ روحِك بالحياة.

لم يَقُل وجدتكُ نافذةً مُشرعةً تستقبلُ الانسامَ المُعطَّرة بأرائج الحقول تنده على الندى أنْ يتحاور مع وجهِها اللهيف للطراوة.. شاهدتُك يمامةً تخفق بجناحين يهتفان بالشوق، تؤمىء برأسها للسواقي كي تدخل وإيّاها في حوارٍ مُفعمٍ

بالصباح.. ولم يقُل مَثلاً رأيتكِ تتضرعين بكؤوسِ الأزهارِ لتسقيك أمواجَ الرحيقِ المُكدَّسِ في الثنايا والمنعطفات... أنتِ روحٌ تتحلَّى بالبساطةٍ، تَنْعمُ بالنقاء.. بل قال:

"شكراً أنَّكَ قيَّمتَ موهبتي." (إنَّ حبَّ الذاتِ لديه كانت تَعلو على وفاءِ المحبين)".

ثم استدركَ: "النجاحُ ليسَ باليسرِ ادراكَه. ومنِ العَسيرِ والشائكِ حيازتُه واقتناؤه."

عيناهُ في تيهِ العُتمةِ، لحافِ النهر، وفضائِه.

أصغى لحديثِ مارَّةٍ تحتكُّ أحذيتُهم ببلاطاتِ الرصيف الكونكريتية.. توقَّفوا خلفه وكانوا ينوونَ عبورَ الشارعِ الى الرصيفِ البعيد.. كانَ الجسرُ الذي هشَّمته قنابلُ الطائرات في العام ١٩٩١ وأُعيدَ بناؤه لا وجود له بفعلِ العتمة.... إنَّه يغرقُ في هيمنتِها.

سمِع أكثرَ المارَّة تأثيراً على صحبٍ يرافقهم يشير إلى كبرياءِ الانسانِ في حفظِه لعهدٍ يقطعُه، فالكبرياءُ هويةُ الصادقين مع أنفسِهم.. وهو وفاءٌ لأمرٍ يتَّخذُه على عاتقِه.

هذا الكلامُ العابرُ القويُّ والدقيقُ جعلَ الرسَّام يستدير بآليةٍ بطيئةٍ ليجعل عينيه تلتقطان هذا الكاريزما المؤثِّر في قولِه ونبرةِ صوتِه وحفاوةِ ما يُثير. فما تفوَّهَ به يشبهُ الحكمةَ تأتي من بُستانِ فيلسوف لا ينطقُ عن هوىً. فالفلسفةُ، كما

قرأ عنها مِراراً، فنُّ تحكيمِ العقلِ والتعاملِ مع الظواهرِ بلسانِ الحوارِ، والوصولِ الى تخومِ الادراك المُقرونِ بالحقيقةِ. لذلك ومنذ تبارَت تلكَ الفلسفة في تفنيدِ ما شُيِّدَ من تَخيلات تنأى عن الواقعِ، وتهويماتٍ تصطدم بقلعةِ العقلِ، وأطاريحٍ تتجمَّل بمساحيق الخُرافةِ صار حاملو هذه التخيلات والتهويمات والأطاريح يتطيَّرون من ذكرِ اسمِها، وما تتعامل بهِ ومعه.

إنَّ هذا الكاريزما، تمتمَ الرسام، ينطقُ بما يقطفُه من بستانِ الفلسفةِ حكمةً وحقيقة. فراحَ يتساءَل في سرّه: كيف سيكون الناسُ لو تفاعلوا مع ما يقوله هذا العابر؟ وكيف سيصار لو أنَّهم تعاملوا بمنطقِ الفلسفة، وتداولوا الواقعَ بعيداً عن الخرافات والتهويمات وشططِ الخيال اللايحد؟.. ثم لماذا لا يبني إنسانُنا العربي قَصرَ فهمِه للحياة بآجراتِ البحثِ الحثيثِ ونشدانِ الحداثةِ النيِّرَة؟."

يقف ليستعيد بعضاً مما قاله صديقه حزين يوماً وهو يشير الى الوفاء للفلسفة التي هي المَسلكُ السليمُ لاجتيازِ الكثير من برازخ تجميدِ العقل، ونقل الانسان الى مرابع التَّحكُّم بالأشياء بموضوعية:" "الوفاءُ للفلسفة هو بمثابةِ ثَمرةِ شجرةِ الحقيقة التي يترعرع الانسانُ تحت ظلّها. فبغيرِ الوَفاء سيغدو ذلك الانسان القادمُ من فضاءِ الهُلام، الضاربُ في دنيا التيه،

الذاهبُ الى قرارة العدم مُصطلحاً للتفاهةِ ولافتةً للوضاعة."

"إنَ قلبي لحزينٌ وأنا أبصر النفوس في تراجع."، يتمتم الرسام، " وإنَّ روحي لتتلظى على نارِ شَدهِ الناس وتيههم في دروبِ الغوايةِ والضياع؛ وأنا السادرُ في دروبِ الفن، المغموسُ في بهائه، الراقصُ على ايقاعِ مهابتِه المطلق لا أرى في السعادةِ إلّا فنّاً، ولا في الألوانِ الا كبرياءً يهتفُ بالعُلى. فالفنُّ نغمُ الروحِ المقرونِ بالحبِّ؛ والحبُّ تلك الشجرة الغنّاء بالثَّمر العَذب، ليس من العدلِ تحييدِه، وتقييدِه بالسلاسل، وتحريمِ علاقتِه بالفن... أليس الجمالُ صفةً لا يمكن حذفها من امتلاءِ الجملةِ إذا أُريد لها التأثير على المتلقي؟ .. أليس ابعادُ الشقاءِ لا يتحقَّق بغيرِ تحييدِ العَذاب ونفيه بعد ذلك عن أبجديةِ المَسار؟.. أليسَ بغيرِ تحصين النفسِ بمتاريس فهمِ الحقيقة لا يَنعمُ الانسانُ بالعلى؟"

لقد سمع مراراً أنَّ بغيرِ التضحيةِ لا يحصدُ الانسانُ سنابُلَ المُراد.

تساؤلاته تناثرت كلمات وحروفاً فاصطدمت بنيكل الافريز وتهاوت ساقطةً في فضاءِ الظُلمةِ التي تغطي النهر وتدعه نائماً بعدما انتهى صوتٌ شجيٌّ يأتي من مُعذَّبٍ يجالس أقرانَ له يحتسون الخمرَ في الضفة الأخرى المتدثرة هي بحلكةٍ ثقيلة... صوتٌ يُعلنُ البكاءَ احتجاجاً على حبيبةٍ

زُوِّجَت عنوةً وحُمِلَت إلى أماكنَ مجهولةٍ في أريافٍ بعيدةٍ سيُهدَر دمُه إذا حاولَ الوصولَ إليها أو اقترب من حدودِ أنفاسِها.

وها هو الرسامُ يبكي حبيبةً ذهبت الى المجهول، إلى غيرِ رجعةٍ. فلم يَعُد يركض وراءَ الأضواءِ ليستدعيها إلى جنائن رغبتِه بالخُيلاء والشعور بالإبهار... إنَّ الرغبةَ؛ أيَّة رغبةٍ، إذا تعالت وتعاظمت في النفس استحالت دافعاً ومُحفِّزاً لنهوض حبِّ الذات وتأثيرها على الموضوع... وحبُّ الذات بدوره إذا دبَّ وجابَ طرقاتِ الروحِ غدا غولاً يلتهم كلَّ ما يصادفه.

إنَّ الاضواءَ دافعُ إغراءٍ، ومُحفِّزةَ استحواذ.

إنَّ حبيبةَ صاحبِ الصوت رحلت على محفَّاتِ العُرس.. لم تكُن سعيدةً، بل متألمةً وجريحة... كذلكَ الرسام ذهبت حبيبتُه الى غير رجعة؛ وهي أيضاً لم تكُن سعيدةٌ... لقد آلمها أيَّما ألمٍ، وجرحها أيّما جرح.

فالآلامُ التي يصنعُها الانسانُ بغيرِه كالحفرِ على حَجرِ الصوان، لا يُمحى أبداً.. إنّها كضربةِ فرشاةٍ على القماشة تأتي في أقصى حالاتِ انفعالِ الرسام وجنونِه.. إنَّها كتواصلِ عازفِ الكمان في تمريرِ قوسِه على الاوتار بالعنفِ المُشابه لعنفِ قاتلٍ يطعنُ بسكّينِه صدرَ أثيرِه طعناتِ الهوس والهياجِ بلا ادراكٍ لندمٍ سيتنامى مع انتهاء ذلك الهوس، وهمود

عاصفة الهياج.

لقد قرأ أنَّ مايكل انجلوا ضربَ بإزميله الذي بمثابةِ أداةُ خلقِه، ووسيلته في صناعةِ الجمال تمثالَ موسى الذي نحته، صارخاً في هول انفعاله: "انطق!.. انطق!"؛ لكأنَّ النُّطقَ في ذُروةِ خَلقهِ هو ما يرومُ الوصولَ اليه لإثبات ألوهيةٍ خاصة، وحياةٍ لا تجمعُ إلّا الجميل، ولا تنكرُ إلّا القبيح... وسمع أن آرام بابوخيان، العازف المتميز في الفرقة السيمفونية يضربُ بأوتارِ قوسِه على أوتارِ كمانه في "صولو" خصَّصها المايسترو له تحديداً. يضرب كأنّه يتشاجر في حُمّى حوارٍ روحي انفعالي لا يُضاهى وسطَ موقفٍ أثار انتباهَ اعضاءِ الفرقةِ جميعاً، بما فيهم المايسترو، وجعلَهم في حالةٍ من ابتهالٍ مقرونٍ بإبهارٍ ودَهَش؛ هم وحدهم يدركون امكانيةَ حصولِ هكذا أمرٍ بنسبةِ واحدٍ من ألف عازف؛ وأكثر.

بالأمس أعلمَه نديم أنّه جلسَ لساعات مع أخماتوفا يحتضن العود..

"على المنضدةِ كان أمامي نصَّ "قداس جنائزي" وقد حدَّدتُ مَقطعاً وجدته يتناسب وعُظم ألمِ الشاعرة من جهةٍ، وجرح صديقتِك الفنّانة الحائكة التي تركتكَ وتخلّت عنك جراء حَيفِك واهمالِك... أضربُ بالريشة على قلبِ الأوتار اتحاورُ مع ذائقتي عن مقامٍ موسيقي يتوافقُ وطبقات الكلام

الصوتية، عن مقامٍ ذبيحٍ يليقُ بروحِ النغم وتعالي جذوةِ الكلمات.. أجرِّبُ نغمَ الصَّبا تناغماً مع الحزنِ الذي يفجّره هذا المقام، ويثير في الروح الرغبةَ العارمةَ إلى تذكّر الماضي الجميل بلوعةٍ واحتراق... أجرِّبَ نَغمَ الحُجاز يفشي بسَفرِ الذاكرةِ صوبَ مضارب أحبابٍ أبعدتهم كفوفُ الغربةِ وتركتهم كالرؤى الهائمةِ في تيهِ الأقدار.

وكان الرسامُ يُدرك أنَّ العازف بوصفِه خلاقاً لبمقدوره التحاور مع الكلمات، والتناجي مع الأوتار، والسير بكاملِ اناقتِه الابداعية من أجلِ لقاءٍ لحنٍ يلفُ به دروبَ الذائقات المتعطشات لصدقِ البوح، فيغدِقُه هديةً بمثابة وردةٍ حمراء عَطِرَةٍ تمنح هاته الذائقات أملاً في تواصلٍ روحي تتوقُ اليه الانسانيةُ وتبشِّر به. إن آلتَه التي تبدو صمَّاء وريشتَه التي تَظهر مستكينةً بقبضةِ كفِّه لقادرتان، وهما يعيشان الشوقَ لعزفه، على تَرجمةِ القصيدةِ حياةً وجعلها فَماً ينطُقُ بما هو دفينٌ من ألمٍ وجزعٍ وشكوى في أعماقِ الانسانيةِ المعذبة.

وترك الرسام الجريح الافريز النيكلي للرصيف الذي شرعَ يخلو من المارّة، وتفرغ الشوارع من المركبات، وتوارت الفلسفةُ متلفِّعةً بمعطفِ الكلمات التي نثرها المارَّة الذين هُم أيضاً تواروا، ولم يدركوا أنَّ المتكىءِ على الافريز جمعها بشباكِ ذهنِه وأجرى حواراً معها أو مارسَ المحاكاة، تعلُّقاً

بها. (إنَّ الحوارَ والمحاكاةَ كانت من ديدنِ الفنانِ الغارقِ في جنونِ حبِّ الفنِّ وفضائِه قبل أنْ ترديه الأقدارُ طَعيناً.)

منحَ مرفقيه الاستراحةَ فقد كان مُنحنياً بهما؛ وبهما متكىء على الانبوب الذي استبشر بأنفاسٍ ساخنةٍ تنهالُ عليه، ثم تتبخَّر.

كانت انفاسُه ساخنةً، وكان صدرُه يجيش بنارِ اللوعة. وكان أوشكَ على الاستدارةِ عندما تجلّى وجهُ نبيلة من قرارِ العتمةِ الطافيةِ فوقَ النهر. خالها لوعى، تتضوَّر ألماً مع أنَّها كانت تبتسم.

***

إنَّها فتاةُ التخطيطِ على ورقِ الرسَّام، تلك التي تلقَّت الدموعَ هاطلةً كالمطر على وجهِها.

***

لم تكنْ تبتسم بدافعِ إعلانِ السعادةِ والتعبيرِ عن الابتهاج انَّما لشعورِها أنَّ عزيزَها الفنان يستلقي على غيمةِ النجاح، وتتوالى الاستشهادات بتميِّز موهبتِه، وبذكاءٍ مُفرطٍ في تفاعلِه مع الألوان وتعامله مع الفرشاة بحيث تأتي لوحاتُه كنصوصٍ تبثُّ شذا الخدر وتنشر الغوايةَ في نفوسِ القرّاء الولهين بعالمِ الألوان والضوء فتجعلهم في هيامٍ هاتفين: يااااه! ما هذا الابداع، وما مَصدرُه؟! ما أبهى مَن يُصاحب

الألوان فيُنتِجُ بفرشاةٍ طيِّعةٍ هذا الخلق الخرافي المَكين؟!.. ما أعظم مَن يجعل مِن فضاءِ الريف مقطعاً مُقتَطَعاً من بهاءِ الجنّة؟!.. أيُّ نصوصٍ لونية هذه التي تحتويها قماشةٌ عذراء ويحدّدها اطارٌ صنعته أناملُ السِّحر؟!.. أيُّ خرافٍ سمينة ويافعة التهمها هذا الأسدُ فأنتجَ كلَّ هذا الابداع؟!

عينا نبيلة تُمطِران ورداً، خالها دموعاً رُغم ابتسامتِها. إذ كثيراً ما عكست الابتسامةُ حزنَ القلب؛ ووفيراً تجلَّت عن روحٍ تُعاني.

قال: "إنَّها دموعٌ، يا نبيلة.. أنتِ لا تبتسمين؛ أنتِ تعنِّفين!.. هذه ليست ابتسامةَ نبيلة التي كانت تقدِّمُها لي على رفَّةِ رِمش... كُنتِ لا تسعَدين إلا بي. لكأنَ ارتفاعَ وهبوطَ حاجبيك يبوحان بذلك وإنْ لم تعبِّر الشفتان.. ابتسامتك هذه قرارُ ادانةٍ في مَحكمةِ الحياة."

يصمتُ قليلاً.. يترك لرأسِه الطأطأة ولأصابعه الارتعاش قبل أنْ يواصل: "تأتين إليَّ، يا نبيلة في أشدِّ تعاستي."

لقد كانت ابتسامتُها هويةَ تعريفٍ بكلِّ ما يجولُ في خاطرِه، بكلِّ ما ينبثقُ من أسئلةٍ يُريد لها اجاباتٍ كي يتعرَّف على مصادر حسِّها الفني ومدى موهبتها التي صنعت الخَلق الذي فتنه... يرى في العباءةِ التي تسربل قوامَها سرّاً يكمُن في دواخلِها، يجعل ذهنيتها كخميلةٍ يانعةٍ يدفعها لأن

تكون حياكتُها نابعةٌ من جمالِ خيالِها.

إنَّ الخيالَ صفةُ الآتين من جنائن الجمال.

في احدى زياراته لها والنخلةُ الباسقة في بيتِها تحتفي بانبثاقِ عذوقِها المنتظرة الرحيق الدقيق تأتي بها رياحُ الشوق، وكان قد صارَ نجماً، قال لها: ماذا يعني لكِ هذا اليوم، فاتحةُ عالمِ الربيع؟

لم تحر جواباً؛ ذلك أنَّ ابتسامتَها كانت أبلغَ جواباً، وأغنى ردّاً منتظراً، وهي تنظر إلى انبثاق العذوق.. لكنَّها قالت:

"الربيعُ ألوانٌ."

وانتظر؛ وفي ظنِّه أنْ ستُكمِل؛ لكنَّ ذلك لم يحدُث لأنَّ الكلمتين مكتنزتان.. انَّهما الاجابةُ الناجزة.

وكان الربيعُ يختالُ في الإزار الجديد الذي أتت به من الغرفةِ المجاورة بعدما انتهت من حياكتِه قبل يومين... راحت تفرشه على سريرها، وهي تدري أنْ سيكون فحواه موضوعاً للوحتِه القادمة.. اللوحةُ التي ينتظرها مُحبو فنّه الجديد وتتشوق لها الصفحاتُ المخصَّصة للفنِّ في الصحفِ والمجلات.

كانت النسائمُ في فضاءِ الإزار تأتي باردةً فتمرُّ على وجهِه مقرونةً بأريجِ روحِها. وهناك طيورٌ متنوعةٌ تتخاطفُ بين النخيل وأشجارِ الرمان. وهناك أيضاً الكثيرُ من عاملاتِ

النَّحلِ تَمتصُّ رحيقَ زهيراتِ أشجارِ السدر المتناثرة وتثمَل في عمليةِ امتصاصِها وتماهيها مع يناعةِ الأوراق اللميعة لتلك الأشجار، وتلك التموِّجات والتكسُّرات.. على مقربةٍ منها كانت السيقانُ المستدِقَّة للغزالة المنهمكةِ في قضمِ العشب المُهفهِف؛ تحاذيها قوائمُ الظبي وهو يرفع رأساً ويدير عنقاً يطالع ما حولها مثلَ حارسٍ أُنيطت به مهمّةُ حمايتِها.

تمتمَ في سرِّه والعاطفة في غمرةِ هياجِها: سأرسمُ هذا النص بحذافيره، بكلِّيتِه، بعظمتِه، بألوانِه، ببهائِه؛ بالضوءِ الآسر، بطعنةِ الإبرةِ الساحرة ومطواعيةِ الخيوطِ الصوفيةِ الملوَّنة.

استوقفته ساقيةٌ يتراقصُ بين كتفيها دفقُ مياهٍ آتيةٍ من النهر فطفقَ المشهدُ يُذكِّره بغابةِ فونتيبلو ملهمة روّاد الانطباعية وفحوى نصوصِهم التشكيلية.

أرادَ أنْ يسألها: هل تعرفينَ الانطباعية؟.. هل سمعتِ بمانيه ومونيه؟.. لكنّه تراجع عندما توقَّعها سترسم علاماتِ إبهامٍ، وتُعلِن جهلَها بلا مواربة.

تخرجُ اليه من فيضِ عُتمة النَّهر، وهو يجيء يومياً بعدما يهجعُ الناس ويؤبون إلى مكامنِهم.. يشعر أنَّ حريته تتجلّى وتتكرَّس ما بعد منتصفات الليالي... هذا النهرُ تصاحبَ معَه؛ فهو الوحيدُ الذي يستمعُ ولا يتكلم.. يتلقّى ندمَه فلا يردُّ

عليه، ولا يواجهُه بالتعنيفِ كما يفعل صديقُه نديم... إنَّ نديم فنانٌ حسّاسٌ يبغي العالمَ يتكينن على مَقاسِ عاطفةٍ جيّاشةٍ تنفي فيه غَلَبةَ أحدٍ على أحد، يريدُ المساواةَ وتبادلَ المشاعرِ النقيّةَ الصافيةَ الشريفةَ بين البشر، يرومُ الوردةَ تغنّي للروضِ؛ والروضُ بدورِه يُغدِقُ على الوردةِ سَخاءً من الاعجابِ والتصفيق... إنَّ نديم بعينِه ينتمي لجوقةِ المغموسين في ساقيةِ الأصواتِ الرخيمة. فنانٌ والفنانونَ حالمون، رومانسيون. يبيعونَ الحياةَ من أجلِ قضيةٍ فلا يندمون..الحياةُ عندهم مواقف. أما هو فقد اسقطته الغوايةُ في شباكِها فجعلته يرى الحلمَ جملةَ ألوانٍ يكيننها سعياً للنجاح وطَمعاً في بهرجةٍ، تيمّناً بأضواءٍ تُسلَّط عليه، لا تنتهي؛ بل والأكثر يريدها تتوهج كتوهجِ ألوانِ نصوصِه التشكيلية.

انطبقت رموشُ نبيلة، وأطبقت الشفةَ العُليا الممتلئةَ على السفلى الأكثر امتلاءً؛ لا حديث ينسكب من بينهما. لكأنَّها آثرت الصمتَ كأبلغِ ردٍّ عليه، كأوفى ما يفوهُ به المتألمون مِن أحبّة أُرتِكِبَ بحقِّهم الطعنُ الدفين. فتلاشى الوجهُ، وغاب.

وبغيابه غابت بقايا الطمأنينة المتبعثرة في نفسه، فاستدار يطالع الشارع (إنَّ الشوارعَ واحاتٌ تُرحِّب بالتائهين المتهالكين، وتفرد أذرعَها لاحتضان أحصنةِ الألم)،

ويحرص على رغبةِ انوجاد مَقهى (فالمقاهي مومساتٌ رؤوماتٌ ورحيماتٌ يهبنَ الطمأنينةَ للمتطيرين، فيطفئن نارَ الغضى الملتهبة في نفوسِهم) يستطيع رميَ جسدِه المشحون بخَدرِ الحزن (والحزنُ نصٌّ العراق المفتوح على مرِّ الازمان، وقصيدةُ الجُّرحِ العراقي الذي لا انتهاء له). لقد حارَ وهو يرى المقاهي المتجاورةَ، تلك التي تأخُذ ثلاثةَ ارباعِ مسافةِ رصيفِ الشاطىء مُغلقة؛ بعضُها غارقٌ في الظلمةِ المجنونةِ وبعضٌ تتأرجحُ فوق ابوابها الموصدة مصابيحٌ شاحبةٌ تُنبىء بالتيه.. فلَمحَ، بضربةٍ من الحظِّ والارتياح، مقهى السهارى؛ مقهى ما بعدَ منتصف الليل؛ تلك التي تأتي على أعقابِ انغلاقِ المُحلات وشيوعِ الهدوءِ المتوالد من تراجعِ المتسوقين والمارَّة بعدما كانوا يعجَّون بحركةٍ موّارةٍ لا تهدأ.. مقهى آثر صاحبُه الاستعانةَ بآخر نشراتِ الأخبارِ من الاذاعاتِ الساهرةِ، وبأغانٍ طويلةٍ تستعين بها الاذاعاتُ لصرفِ ساعاتِ الليلِ الثقيلة.

حين دنا سمع اذاعة "اف أم"، وبرنامجاً مُعاداً لقراءةِ شعرٍ شعبي ينساب صوتُ مُقدِّمِه برخامةٍ وبعباراتِ استقبال تُشجّع مَن يستمع ليشارك بعدما يلتقط رقمَ هاتفِ الاتصالِ مِن المُقدِم الذي كان يحرص على اعادتِه ببطءٍ بين كلِّ ثلاثِ اتصالاتٍ أو أربَع.

لم يجد نديم، فحسِب أنَّ اخماتوفا تسبَّبت في تأخُّرِ

حضورِه. مع ذلك اطمأن إلى أنَّه سيأتي.. حتماً سيأتي.

طلبَ من صاحبِ المقهى فنجانَ قهوةٍ مَقروناً برجاءِ العودةِ إلى محمد عبد الوهاب الذي مرَّ عليه ميلُ المحطّات وتجاوزه... إنَّ من صميمِ عملِ مقاهي الوقت المتأخِّر من الليل واجبُ خدمةِ الساهرين، والهاربِ منهم النومُ، والمقض مهاجعهم عويلُ قطارِ همومٍ يكبرها هذا الليل ويضخّمها فيجعلهم يتركونَ الأسرَّةَ والوسائدَ ويخرجون ضاربين على غيرِ هُدى. يجترّون القلقَ فتعظمُ في نفوسِهم المشاكلُ مهما كانت صغيرةً ومحدودةً، وتافهةً أحياناً.. مشاكلٌ تغدو كالهولِ، كالوبالِ، كالزلزال. فلا تُقلِّلُ من وطأتِها سوى الشوارعِ والأرصفةِ والفضاءاتِ الفسيحة؛ وسوى الجلوسِ في مقهى (سوى هذه المقهى الطارئة، وسوى وجهٍ مُتهلِّلٍ وعينين تستقبلان بودٍّ ورغبةٍ تأدية خدمة مَصحوبة بتمشيةِ حال).. لقد خمَّن الرسامُ أنّ لصاحب المقهى حكايةً خبيئة، وإلا ما افتتح مقهى في وقتٍ يتطلَّب الرقاد العميم، وما تحرَّك بنشاطِ نحلةٍ عاملةٍ لتقديمِ خدماتِه بروحٍ حنونٍ وتباشير وجهٍ سَمِحٍ؛ حتى لو كان عملُه هذا مِن عِداد مُهمّة تفرضُها الظروفُ على البعض فتجعلها مهنةً لهم يتَّخذونَها لتمشيةِ حالِ أسرة... لكنَّ الرسام حدسَ بحكمِ الألمِ الممض الذي يساورُه أنَّ هذا الرجلُ لا بدَّ أنّه جريح، طعنته الأيامُ أو هو ما أُرتُكِبَ من أمرٍ جَللٍ يريد

من القدرِ والليل أنْ يَغفرا له، ويُكفِّرا عن خطيئةٍ عظيمةٍ اقترفها.

تُرى أيّةُ خطيئةٍ ارتكبَ هذا العاملُ النحلة؟.. ومَن أمطرت عليه سكاكينُ الخطيئة؟

إنَّ المرءَ لطالما أسقطَ ارتكاباته وخطاياه على نفوسِ الآخرين.، فيظنُّهم يساوونه في الخطيئة، ويصحبونه بالندمِ وطلب الغفران.. أتراه مخطئاً بحكمِه، وما اظهارُ الرجلِ لحُسنِ تصرفاته إلّا مداراة للمهنة، وسلوكاً لا بدَّ من اتِّباعِه ليضمن عيشاً فيه الروادُ قليلون، ينتظرُهم انتظاراً. أي يصطادهم مثلما يصطادُ السمك وهو في نهرٍ يترجّاه اغداق ما في ثناياه؟ أليس الساعةُ الآن الثانية صباحاً، وعبد الوهابُ يدندن على العود "جايين، منعرف ليه..."، والروادُ فرادى يُحدِّقون في الفضاءِ الساكنِ كأنّهم نيامٌ، ما عدا الرؤوسِ التي تطوُّح بطيئاً، بطيئاً جداً يميناً وشمالاً، والأفواه التي تنفرج وتنغلق ببطءٍ يشبه ما تعرضُه الأفلام لتجسّد فسحةَ حُلمٍ بلا صوت.

"من غير ليه"، واجهُه بها صاحبُ المقهى وهو يدندن بها ويضع فنجانَ القهوةِ أمامَه مع قدحِ ماء.

أوسعَ الرجلُ ابتسامتَه، وهمسَ في وجهِ الرسام بسؤالٍ مغموسٍ بالدهشةِ:

"أليسَ الذي أخدمُه فنانَ الغزلانِ والظِّباء والبساتينِ

العامرةِ أمْ أنا مُشتبه؟"

هز الرسامُ رأسَه بالإيجاب، فتهلَّلَ وجهُ الرجل، ثم تنامت تقطيبةُ قلقٍ أحدثت هالةً من التضبّب؛ ففاهَ كالمسحور:

"لماذا تسهر لهذا الوقت، يا سيدي؟.. السَّهرُ للمحزونين؛ وأنتَ على حدِّ علمي في أعلى درجاتِ نجاحك؟!

وكان على وشكِ أنْ يضيف: "الناجحون يرقدون مُبكِّرين؛ يضعون الرؤوسَ على وسائد الهناء فيرحلون على جناحِ غَيمةٍ بيضاء تنقلُهم إلى جنانِ الأحلام المُتحقّقة." عندما طأطأ الرسام رأسَه طويلاً، ورفعه فهالَ العاملُ رؤيةَ العينين تطفحان بالدمعِ الثقيل، والجبهةِ تتعكَّر، والشفتين تَبيضّان، والأصابع التي تمسك الفنجانَ ترتعش، ولمّا يرتفعُ عن صحنِه الخَزفي الصغير.

"لقد كان الشاعرُ حزين يأتي لمقهاي في مثلِ هذه الاوقات؛ وكنتُ أقول مع نفسي الشعراءُ لا يستكينون للوقت، فالوقتُ لديهم سواءٌ، في الليلِ والنهار... الشعراءُ لا يعرفون الاستقرار. الطمأنينةُ غائبةٌ عنهم. لذلك كنت أعذرُهم. أما الرسّام فألوانُه أصدقاؤه. يُمتِّعونَه حينَ يتحاور معَهم. ويُغدقون عليه الجَّمال حين يمزجهم في بوتقةِ حوارِه الروحي... هل انتفضت عليكَ ألوانُك فخانتكَ، يا سيدي؟"

استعذبَ كلامَ هذا الذي لا يبدو عاملاً بسيطاً يخدمُ

الزبائن.. استعذبَ كلامَه بدهشة . فما قاله ينمُّ عن شخصٍ فاهمٍ وعليم. معرفتُه بما في الشاعر وما عند الفنان يدلّل على علوِ كعبِ ثقافتِه. إنّه ليس بشخصٍ يعيش على هامشِ الحياة بعدما سُرِقت آمالُه في التعلّم والتثقُّف شأنَه شأن آلاف الذين حُرموا من فاكهةِ التعليم فالتجأوا إلى مِهن كهذهِ لا تتطلَّب سوى الجهدِ العَضلي.

كيف يشرحُ للرجل محنتَه.. وكيف يُفكِّك تعقيداتِ مُعضلةٍ ليجعلها يسيرةَ الفهم لدى هذا الماثل أمامَه في بَهتٍ، وشَدهٍ، وحيرة؟ كيف يوصل ما انتهى اليه فيقولُ بلسانِ حاملِ الخطيئةِ الكبرى: "النجاحُ حين يأتي عن طريقِ ظلمِ الآخر لا يُفضي إلّا إلى خيبةٍ دائمة، ولا يقود إلّا إلى تعثرٍ في طريقِ الحياة."

"إنني لحزينٌ، يا صديقي.. والنجاحُ لا يشير دائماً إلى السعادةِ... السعادةُ هي ما تقرؤه في عيونِ الآخرين من هَناءٍ وعيشةٍ راضية فتلتقط من تلك العيون شعاعها فتسعد وتهنأ، فتعيش حياةً تصاحبها القناعةُ مقرونةً بالنجاح الذي أشَّرت إليه قبلَ قليل.. السعادةُ أنْ تفرش دربَ مَن تُحب بزهورِ الوفاء، وترسم له خطواتِ المستقبلِ الجميل بفرشاةِ التضحية وألوان الوفاء.. لا أنْ تطعنه بسكينِ الغدر.. أنا غدرتُها فطعنتُها بسكّينٍ مزَّق قلبها."

لا يدري الرسام كيف انبرى العاملُ ليقول مُتحسِّراً، ويستدير ليخدُم روّاداً هبطوا من سيارةِ صالون تحمل رقماً من الشمال:"كأنَّكَ أنا."

فردَّ هاتفاً وقد صدمته دهشةٌ أحدثها حرفُ التشبيه:

"ماذا؟!!"

هل سمع العاملُ السؤالَ الذي كالهتاف أم لا.. أسمِعه وتغاضى، أمْ انشغلَ بخدمةِ الذين تحلَّقوا حولَ منضدةٍ وكانوا اربعةً نزلوا من السيارة، وانه سيعود اليه ليدخل وإيّاه حديثَ الهمومَ المشتركة.

وكان العاملُ سمِعَ السؤال، وعرف أنه نابعٌ من روحٍ غيرِ هادئة، من قَلبٍ يملأه الجزعُ فقد هتفَ كثيراً وهو ينصت لجراحِ قلوبِ جُلاسٍ سهارى أضنتهم أثقالُ الحياةِ بأحداثٍ حَصلت لهم أو هُم ارتكبوها فهاموا جزعين والظمأ يلاحقُهم وهم يبحثون عن مَطرِ الطمأنينةِ، ليغسلوا تحتَ رذاذِه أرواحَهم التي تعاني من اللظى، ويُرطِّبون ألسنتهم ألسنةً أسَرَها الجفاف، وتنبأ لهم بتيهٍ لا خلاصَ منه.

إنّه تيهُ الندم...

"لقد قتلتها بيدي، بجبروتي، بإهمالي وعدم استجابتي لندائِها... نلتُ النجاحَ والشهرةَ بتأثيرها؛ لكنّي لم أُجازيها بالعرفان؛ لم أحقّق رغبتَها بالاقترانِ والعيشِ معها. لذا غابت

غيرَ راضيةٍ عني."

"كفى!.. كفى!... أأنتَ صديقُ عازفِ العود؟!"

"نعم.. نعم؛ هو أنا."

وتفاجأ الرسامُ لرؤيةِ سيلين من الدمعِ يتدفَّقان على خدّي العامل، مثلما تفاجأ به يقول:

"لقد حكى لي صديقُك قصَّتك ومعاناتك.. وكان يبكي."

"صديقي عازفُ العود يبكي؟! "

"نعم؛ كثيراً ما يجيء إلى هنا ساهداً لا ينام. يصارعُ الحزنَ عليكَ وعلى مَن أحبتك.. كان يقولُ أنَّها ستموتُ مَطعونةً."

"أهكذا؟!"

"نعم، وكنت أرمي عليكَ اللوم عندما يَحكي؛ وأنهال بكلِّ كلماتِ التقريع؛ لكنَّه كان يدافع عنكَ باستماتة.

"آآآآآآآه!"

"كانت قصتي كقصتِك. فأنا تركتُ من أحبتني وعاهدتُها على الوفاء، لكنَّ الطيشَ أخذني فسافرتُ الى البحرين من أجلِ العمل والعودة بما يجعلنا نقترن ونعيش في بحبوحة.. كان ذلك قبلَ خمسة عشر عاماً."

"وتعاليت عليها بمجردِ حصولي على عمل.. وجمعتُ مالاً،

أليس كذلك؟ ".. سألَه الرسامُ بمرارة.

"وكان الطمعُ في جمعِ المال أكثر وأكثر هو ما جعلني أطيلُ الغياب... كانت تراسلني... تراسلني كثيراً.... في البداية كنتُ أردُّ على رسائلَها باهتمامٍ وولع، وهي ترجوني العودةَ وتقول: ما حصلتَ عليه يكفي لعيشنا".. ثم رحت أقطعُ عنها الكتابة. وبعدها تجنيّتُ فأهملت رجاءاتها وأنا متوهجٌ لدنانيرَ صارت تزدادُ وتزداد."

"ألم تشبع من المالِ وتعود إليها؟"

"كلا.. مثلما لم تشبع أنتَ من الشهرةِ والنجاح، ولم تعُد فتسبَّبت بجُرحِها."

"وهل ماتت؟"

"لا.. دعاها اخوانُها الى الزواج. وكانت في كلِّ مَرَّة تُخبرهم بعدمِ رغبتِها. وعندما أجبروها وزادوا بضغطِهم عليها اندفعت مساءَ أحدِ الأيام فرمَت بنفسِها الى النهرِ، من هذا المكان الذي أمامَك."

"يا اللّه، ما هذا العذاب!"

"عندما وصلني الخبر تفتَّت وتهاوت جميعُ الطموحات؛ والمالُ صارَ في جيوبي حصى... وعُدتُ جريحاً.... وها أنت تراني في هذا المكان. أوجدتُ مقهىً على الرصيفِ في الليلِ فقط مع أنّي لم أكُنْ أعرف هذه المهنة مِن قبل."

"كذلك أنا. أصبحَ الليلُ مهنتي ووقتي الذي ألتقيها فيه. لقد أخبرني صديقي عازفُ العود أنّها في الأشهر الأخيرة قبل غيابها كانت تتَّخذ من الليلِ صاحباً لها.. تأتي إلى هنا. تتلقّى درجاتِ السلَّم الحجري نزولاً الى النهر... هناك قال لي صديقي أنَّها كانت تجلس على صخرةٍ تناجي طيفي، وتبثُّ شكواها للنهر."

انقطع الحديثُ عندما توقَّفت سيارةُ نجدةٍ نزل منها ضابطٌ وشرطيان اتخذوا من منضدةٍ طارفةٍ فتوجّه اليهم القهوجي يقدَّم خدمته بينما نهض الرسام واستدار آخذاً امتداد الشارع مَسلكاً يدخله إلى السوق المُسقَّف، حيث سيقف عند دكّان بائع الأصباغ الموصَد ليستعيد مشهدَ لقائِهما الخاطف ويتحاور مع عينيها اللتين التهمتاه شوقاً تلك اللحظة، ومع قلبها الذي سقطَ في هوِّة المفاجأةِ والدهش... ولم ينتظر حضورَ صديقَه نديم.

نديم كان يصاحب أخماتوفا في شارعٍ آخر من شوارعِ المدينة. يحكي مشروعَه اللحني، لقصيدتِها التي أودعَها بيدِه صديقُه حزين وترجّاه أنْ يهتم بها فنياً، ويعدها بوفاءٍ أنْ يكون لَحناً مُميزاً يليقُ وعُظم نَصِّها. وهي من جانبها تنصتُ إليه باهتمام. فالأصوُل الانصاتُ لأنَّها على أرضِه، وفي ضيافتِه.

***

توالت حكايةُ الفتاةِ البارعةِ في صنع الإزر، وانتشر الاقبال مصحوباً بدعايةٍ تتولاها المؤجِّرة على ما تنتج، فصارت المُعجبات من ربّات البيوت يتبارين على الشراء.

أجواء القرية تبهر عيونَّهُنَّ وهنّ يحدقن بالإزر فينعمن بتفاصيلها؛ يعدنها أجمل بكثير من أجواء المدينة. يُسحَرنَ ببهاء المشهد ورونقِ التفاصيل.. يفتتن بالخيوط الصوفية بألوان تأتي من وهَجِ موهبتِها وتميُّزِها فلا تشبه ألوانَ خيوطِ حائكاتِ الإزر المنتشرات في أحياءِ المدينة.

وكان الرسَّام في معارضه الثالث والرابع والخامس في العاصمة يطفو على مدٍّ من الاعجاب تُمطِره عيونُ السحر.. عيونٌ تهفو، وقاماتٌ تتمايس. تقتربُ منه فتتحلّق حوله. كلماتُ الثناء تَهمي عليه كرذاذِ مَطرٍ أتت به جنانُ الخلد، وكلماتٌ تتدفَّق من شِفاهٍ جعلتها أصابعُ الروج كالشهد.. فتياتٌ ومعهُنَّ نساءٌ بفساتينٍ عاجَّةٍ بالبريق، يتحبَّبنَ ويتودَّدن، ويتغنَّجن أملاً في اعجابٍ يُبديه لهن، وأمنية امتلاكِهن له، أو عبارة غَزل يحصدنَها من حقلِ ابداعِه ويَحسبنَ احدى الشفرات المبثوثةِ على قماشةِ اللوحةِ تخصّهن.

ولم تكن نبيلةُ ابنةُ الجنوبِ بينهن.

كانت نبيلةُ بعيدةً؛ بعيدةً جداً. فهو في حُمّى حَصادِ سنابل الاعجاب، وأعلى مراتبِ الألق. يتلقّى فلاشات الكاميرات

بابتسامةٍ يعجُّ بها القلب، ويطلقُ فراشاتِ البهجةِ أعلاناً بسعادتِه بالجمعِ الكبير المُحتشِد، صكّ نجاحِه الباهر وتميُّزِهِ على الأقران.

في ذلك الخِضم من الزهوِ والبهرجةِ والبهاءِ لا يتمنّى نبيلةَ معَه ليُعلن أنَّه خرجَ من معطفِها؛ بل لا يطلبُها حتّى.

لا يذكرُها إلّا عندما يهمُّ برسمِ لوحةٍ، ويسعى لموضوع.

يُربكُها بتجاهلِهِ، ويغيظُها ببعده.. يبتكرُ اعذاراً ليطيل فراقه عليها؛ هو الذي كلَّما ضغطت على قلبها وأباحت لعقلِها تصوره حبيباً عاجلَها بإهمالِ نأيه عنها، وطعنَها في الصيم.

كانت تجابه مصيرَها وحيدةً أو تستعين بنديم على معرفةِ أخبارِه وسببِ انقطاعِه. وكان نديم يختلق الأكاذيب ويبرّرها بحججٍ خشيةً عليها من عوارِض الأقدار.

يُعلِمُها أنَّ النجاحات تتوالى على صديقِها. ومعها يصطنعُ كذبةً بيضاء يُعلِمُها أنَّه اتَّصلَ به وهو في اشتياقٍ للزيارة. ويتواصلُ في كذبتِه فيخبرها أنَّه حمّله السلام إليها؛ وهي ببراءةِ ونقاءِ الجنوبِ تُصدِّق فتنطلقُ مَرِحةً كطفلةِ تلوذُ بألعابها لتصطنع حكايةً تعيش معها السعادةُ فتتوجَّه الى خيوطِها الملوَّنةِ في خَلقِ إزارِها القادم، منهمكةً في الرقصِ على ايقاعِ الزمنِ حتى ينهكُها العملُ فتسقطُ مُجهَدةً دونَ

غداءٍ، دونَ عشاءٍ لترحل بزورقِ الكَرى وأحلامِ لقائِها به.

وكانت تبعث اليه تُعلِن لهفتَها لملاقاته.. وكان يردّ بالاعتذار متعلّلاً بالدراسةِ والعمل. وطال رجاؤها في حضوره. ومعه طالَت فترةُ ردودِه عليها حتى حدثَ الانقطاعُ، وبعده حصلَ النسيان.

فحزنت، وتهالكت، وتشظت.

وشرعت صورةُ اختراقِ الحشدِ في السوق من أجلِ الوصول اليه وقد أبهرها جمالُه تتبدَّد... كذلك تبدد مشهدُ الكتاب الذي اسقطته سعياً للفتِ انتباهه. مثلما تبدَّد موقفُ استدارتِها بعدما تسلَّمت الاصباغَ من البائع... صارَ عليها إذا أرادت استعادتَها أنْ تُركِّز، وتُزيد في التركيز ما يسبب لها الصداعَ وتسارعَ ضرباتِ القلب.

مرةً كانت منشغلةً في شراء بعض احتياجاتِها المنزلية من السوق عندما لفت انتباهَها غلافُ مَجلةٍ فنيةٍ بصورةٍ ملونةٍ أجفلتها، وجعلتها تتوقف لتتفرس فيها.. كانت الصورةُ للوحةٍ مستمدة من أحدِ إزُرِها.. تساءلت في سرِّها عمّن صوّر الإزار وأوصلَه إلى المجلة.

اندفعت تبتاعها وتخفيها في حقيبتها وقد اعترتها نشوةُ اللهفةِ لمطالعتِها... ولم يتَّسع الصبرُ في قلبها فانتحت جانباً وراحت تُقلِّب الصفحات، فإذا إزُرُها تتوزَّع بين أطرٍ مزخرفةٍ

معروضة على جدران مَعرض والعيونُ بشغف تتابعها إزاراً فإزارا؛ وإذا بصورتِه يقفُ عندَ أحداها مُبتسماً وثمّة عِنوانٌ عريضٌ بخطٍّ أحمر مشوب بصفرة الذهب " المدرسة الانطباعية الجديدة "

انتشت لرؤيته مبتسماً سعيداً وقد تأثرَ بما شاهدَه من سِحر حياكتها، وانفعالها بما استخدمت من ألوان أنتجت جمالاً أحدث فتنةً في ذائقة المشاهدين؛ هي المغرمةُ حدَّ الولهِ والذوبانِ في رؤيتِه ناجحاً؛ أذْ صارت تقيسُ سعادتَها من مستوى نجاحِه وتألقِه، وهو الماثلُ أمامَ رغبتِها العارمةِ في الشوق، ُّالشاب الذي يحقِّق لها المطامح ويغذِّيها بشهدِ التواصلِ بدنيا تتراجعُ من محيطِها اشواكُ المُنغِّصات والمفاجآت.

ولم تدُم النشوةُ لأنَ هاجساً انبثقَ في رأسِها فانتجَ احتمالاً تشاءمت لتفاصيلِه.

إنَّ الروحَ القلقةَ مجبولةٌ على التهجُّس؛ وكثيراً ما تمثَّلت الهواجسُ حقائقَ. فمن حقّها طبقاً لذلك أنْ تتساءل: أيكونُ حضورُه لبيتي قَصدَ جمعِ أحجارِ فنّي ليعرضَها على أنّها من بُناةِ افكارِه وتوَّهُجِ موهبتِه؟.. أتراه يتجنَّب وجودي معه ، وما يبعث مِن كلامِ ترجٍّ واعتذارات إنَّما من بابِ جَبرِ الخواطر، وأنَّه يحسبُها غيمةً عابرةً تمرُّ في سماءِ شوقِه لمطرِ الابداعِ

فارتوى من مدرارِها وما عادَ في رغبةٍ لفيضِها؟

تذكَّرت أنَّه سألَها مرّةً عن الانطباعية وما إذا كانت تعرُفها أو سمِعت بها.

وصادف أنْ قرأت في صفحةِ "نصوص من نفسِ المَجلة شعراً يقول:

طَرقت العصافيرُ بابَها ،

قدَّمت زغاريدَ الصداقة.

سالت من فمِها ابتسامةٌ للقدوم.

طارت من عينيها فراشاتُ الجذل.

صارت صَباحاً يتمايس، وأصابعُها

رقصت على ضحِكاتِ الورد.

مرَّ حبيبُها الغادر..

حبيبُها الغادرُ سلَّمَها مَظروفاً.

هبطَ المظروفُ مِن أصابع حيرتِها.

صارَ خِنجراً.. طعنَ حرّاسِ قلبِها.

صرخت:

آآآآآآآآآآآآه؛ أنتَ تقتلني !!

انجرحَت لما قرأت، وحسِبت ما كتبَه الشاعرُ إنَّما موجّه إليها، لا لغيرِها. فطأطأت الرأسَ وطفقت في نشيجٍ مَكتومٍ يُفصِحُ عن حَجمِ الخَيباتِ منه.

(٥)

أَحزنَها أنَّه يقودُها الى غابةِ المستحيل
يُملي عليها شوقاً يَجمعُه من أرصفةِ الجَفاء
أغرقَها بيمِّ الرمالِ؛ رَمى عليها الصحراءَ
آلمها بَسمَتُه تُمطرُ كبريتاً،
يَحرقُ صورةَ الملاكِ الذي في قلبِه،
لم يوهبها الضفافَ مَقرونةً بالنهرِ؛
ولا مَرةً قال: خُذي الواحةَ والغدران.

زيد الشهيد (اشجان الغرباء)

كانت لذَّةُ الخروجِ ليلاً لديها لا توازيها لذّة. ونغمةُ الحنينِ تأخذُ طابعَ التفاقم والتعالي مع كلِّ خطوةٍ تخطوها على إيقاعِ الألم المَحفور على شَغافِ قلبِها...إنَّ ليلَ السماوةِ كليلِ السماوات: هادئٌ، وطيّعٌ، ورفيق.. إنّه كغابةٍ تحتضنُ السكونَ وتعتاشُ في الطمأنينة مُرَحِبةً بالفارّين من قَمعِ الأقدارِ وتجنّيها... إنَّ الليلَّ بعمومِه روحٌ رؤومٌ، فكيف بليلِ السماوة الذي يسهرُ يَجوبُ الطرقات بَحثاً عمَّن هَجرَهم الكرى ليأخُذ بيدِهم إلى جادَّةِ الصّفاء. يجمعهم ليتحادثوا ويتسامروا... يقصُّ أحدُهم حكايتَه على الآخر طَمعاً في المواساةِ، وَرسوّاً عند مَرفأ الشعورِ أنْ ليسَ هو الوحيدُ الذي انهالت على صَدرِه خناجرُ الحادثات فأردت قلبَه مُثخناً بالعناء.

لم تصدِّق تبدّد خطاهُ على أرضيةِ السوق الذي اعتادَ ارتيادَه أملاً في مشاهدتِها.

تراه وإنْ كذَّبَها الآخرون برؤيته؛ وتُكلّمه وإنْ قيلَ لها أنَّكِ تُكلمينَ هواءً... وأيضاً أيضاً لم تقنَع بمَن رسمَ علاماتِ الأسى كرسالةٍ إليها بتقبِّل الفَقد ، والرِّضا بالغياب.

وينبثقُ صوتٌ من بين طوايا الروح:

"لو كانَ قلبي معي ما اخترتُ غيرَكمُ / ولا رضيتُ سواكُم بالهوى بدلا".. يتعالى وجَعُ قلبها ، تتعالى الآهةُ.

تمرُّ على الجسرِ الحديدي البعيدِ الغارق في الظلمةِ عدَّةُ عربات بمصابيحَ مشتعلةٍ، فتقولُ في سرِّها: "إنّه في واحدةٍ من هذه العربات؛ والجسرُ مهما اختفى فإنه سيظهَرُ مع أول دفقةِ ضوءٍ فيربطُني به... هناك؛ تحت انارةِ أعمدةِ الشوارع. وإنْ كنتم لا تبصرونَه الآن فلسببٍ قاهر. "

تومىء بأصابعَ ناحلةٍ وكَفٍّ عجفاء.

آآآآ؛ يا للأصابع التي كانت شمعيةً لدنةً ! ويا للكفِّ التي نحتَها خالقٌ آثر الجمالَ بتناسبٍ أخاذٍ على خلقٍ يُحبه !

"انتظريني إنْ تأخرت.. لابدَّ مِن سببٍ لتأخيري."..ظلَّ يؤكِّد عليها باستمرار.لكنَّه كان يتأخر؛ وحضورُه استحالَ مُتقطِّعاً يأخذُ فعلَ الأشهر.

يَبعث اليها من بَعيد سيلَ الاعتذاراتِ ترافقُها الأعذار. غير

أنَّ الأعـذارَ حـين تتراكـم يكتئِـبُ القلـبُ، وتتيـه الـروحُ في مَسـاربِ اللوعة؛ ويغدو الجسدُ ناحلاً، وضامراً، وعليلا.

***

في احدى الليالي رآها نديم وهو يُصاحِبُ أخماتوفا تخطو وقد أعياها اعتكافُها في البيت وثقلُ انزوائِها في غرفتِها لأيامٍ... تبعَها وهو يردَّدُ متأسياً لمشاهدتها تتعثَّر:" ما هكذا يكون الحبُّ يا نبيلة ! ولا هكذا تكون الثِّقةُ به... لقد غابَ ونسيَكِ؛ فواجبٌ عليكِ نسيانَه."

ضحِكت في داخلِها كأنَّها تُعلن سخريتَها من طلبٍ قرينِ الاستحالةِ.

قالت له أخماتوفا وقد حدست أنَّ الفتاةَ عاشقةٌ بصدقٍ وحَق:"

إنَّها جريحةٌ وموجوعةٌ، ستموتُ ولَهاً وشفّاً... ما أرى فوقَ كاهلِها من غدرٍ ومجافاةٍ لكافيين على سحقِها."... وقالت له: "الحبُّ في الشرقِ لا يتكلَّلُ إلّا بالموتِ قَهراً، وعَسفاً، وحِرماناً... لهذا أخشى على هذه الفتاة من موتٍ قريب."

جعلت عيناها تغيمان وتتضبَّبان؛ وشرعت تُتمتِم بواحدةٍ من مُنغَماتِ شِعرِها الجريح:

كم قدتني في الطرقِ الوعرةِ
كنجمٍ يسقطُ في الظلام.

وكنتَ لي حرقَةً وكَذِباً.

أمّا عزاءً، فما كنتَ أبداً.

تلكَ الليلة احتضنَ نديم عودَه ووجَّه أصابعَه ترقصُ على الأوتارِ رقصةَ الذبيحِ، تقصُّ بطريقةِ العزفِ واللحنِ والغناءِ أغنيةً سمّاها "تعثُّر"؛ استوحى عنوانَها من مشاهدته لها تتعثَّر، مُنهكةً خاوية فشبَّهها بآنا أخماتوفا، الجريحة التي كثيراً ما شاهدَها المحبّون تتعثر وهي تقودُ الخطو إلى المقبرةِ لتضعَ باقةَ وردٍ على قبر غوميليف، زوجِها الشاعر وصديقِ طفولتها الأثير... تتعثَّر لتصل الى الحافلةِ التي تنقلها وجموع العائلات المجروحة بأفرادٍ لها، سجناء الرأيِّ والأفكارِ ينتظرون وراءَ القضبان بارقةَ أملٍ وعميمَ شوقٍ لحضورهم.

"تعثُّر"؛ قصةُ العزفِ المقرونِ بالألمِ المغموسِ بالعَذاب.. قصةُ الصوتِ الموجوعُ للروحِ المتهالك.

أكبرت فيه أخماتوفا اهتمامَه بصديقةِ صديقه، واقترحت عليه تأجيلَ مشروعَه معها لحين اكمالِ اللحنِ وتحويلِه ارجوحةَ جراحٍ تتغنّى ببطاحِ بلدِه وسهولِه والروابي؛ تترنَّم بها ولو على بكاءٍ ومرارةٍ فتياتُ بلادِه المطعونات من غدرِ الأحبِّة وهجرانِهم لهنَّ.

***

قالت لها الأصابعُ: ما عادت لي القدرة على تملّي قسماتِه واحالتها صورةً يتباهى بها الإزار فقد صرتُ أرتعش، وصارَ هو كخيطِ دخان يتبدَّد فلا أحظى بلمسِه؛ هل تقبلين جعله خيطَ دخانٍ فاعتمدُ اللونَ الرماديَّ والأسودَ؟

لقد غدت تعاني الهُزال؛ والهزال حين يسري في الجسدِ يجعل النهارَ غولاً يسحقُ العظام، ويصنعُ من الليلِ طاحونةً تتعالى في سمائِه جعجعةُ الألم.

وكانت طوالَ وجودِها في البيت تُرهِف السمع؛ علَّ طرقاتٍ يفوه بها فمُ الباب، ويبشِّرُها بحضورِه. فالبابُ كثيراً ما كانت لافتةَ بُشرى لها، ورقصةَ نحلةٍ تُعلن لقريناتِها عن روضٍ باذخِ العطر.. تُحفِّزُ العينَ وفي القلب لهفةٌ لمشاهدة حذائِه الجلدي الملميع وجزءٍ من بنطلونه الجينز الأزرق تُفصح عنه الفسحةُ الرحيمةُ التي بين أسفلِ البابِ والدكَّةِ الاسمنتية.. تهرقُ ما في القلبِ من شوقٍ وتسفحَه على دكَّة انتظارٍ قاتل. فالقلوبُ مَكامنُ العاطفة، وبساتينُ حنينٍ تعجُّ بثمارِ الأمل. والأملُ هو ذلك الكتاب الذي ملأه الغيبُ بما يُطمئِن النفوسَ ويجعلَها تقوى على تقبِّل اللظى وتحمّل شواظِ النار المُستعرة في تنانير الخيبة.

وكانت تحتفظ له بخبرِ انجازِ إزارٍ سكبت في ثناياه عصارةُ روحِها، وهي بانتظار ابداء اعجابه، بانتظار رضائِه،

بانتظار كفّ المصالحة. أليس رضا الحبيب عَطيةً من عطايا الحظ، وهبةً من هباتِ القدر، وفيضاً من فيوضِ السماء عندما التضرُّعُ يؤول إلى النَّيلِ والحيازة؟

وكان هو هنالك؛ بعيداً عنها، يسعى حثيثاً لإنتاج لوحاتٍ تشكِّل امتداداً لمشروعِه في معارضِه الناجحة السابقة غير آبهٍ بها... ما يريده فقط هو أنْ يستعير منها الموضوعَ، أنْ يخطف منها فتنةَ الألوان ويسألها عن مقاديرِ اصباغٍ تستخدمُها بذائقتِها لخلاصةِ ألوانٍ تتفرَّد بها وحدها..ألوانٌ جهدَ كثيراً لاستخلاصِها في مرسمِه فعجز.. هي ألوانُ الروحِ الرهيفِ العاشقِ بحق.

وكان نديم أباح لها بما يشبه السرَّ الدفين:" هو يشعر أنَّ النجاحَ لا يتحقَّق وهو ملتصقٌ بكِ في هذه المدينةِ النائية، لا يتحقَّق وأنتِ على ظهرِه، يحملُكِ ويجري."

خيِّلَ إليها مرةً أنّه يطرق البابَ بطرقاتٍ وحدها تُدرِك من يكون الطارقُ؛ فهتف القلبُ بشعاراتِ الترحيب.. وما أنْ واربت البابَ ودخلَ واغلقته حتى راح يرتمي على قدميها يُشبعهما بالقبلات ويبكي... يبكي ويقول سامحيني، أنا أدري أني قاتلُك. أعرفُ أنَّي المتجنّي في طعنِك وجرحِك وايلامِك؛ لكنْ ماذا أفعل؟... أبحثُ عن التألقِ والنجاح.

وكانت ترى النجاحَ لا يدومُ بينما هي دائمةٌ له.

كانت تريد أنْ تقول له:" إنَّ النجاحَ لا يدوم بينما أنا دائمةٌ لكَ."

النجاحُ لا يدومُ لأنَّ أحداً ستُظهِره الأيامَ يتجاوز موهبتَك ويعلو عليها. سيأتي بشيءٍ جديد يُثير مَن أُعجبوا بكَ؛ وعندها تتحوَّلُ عيونُ الاعجاب إليه فيما تتراجعُ أنتَ إلى الظل.. وستصبحُ رقماً بين الأرقام."

"أنا دائمةٌ له."؛ كانت تقول لنديم، فترى عينيه تدمعان لكلامِها.

هو الأدرى أنها دائمةٌ له، وأنّها لا تبغيه زوجاً إنَّما بارقةَ أملٍ في استمرار حياتِها؛ إذ أسرَّته يوماً أنَّها تلقَّت من الطبيبِ الذي فحصها وهي بعمر الثامنةَ عشر أنَّ قلبَها مطعونٌ ببطينٍ ضعيف قد يخذلُها في أيّةِ لحظةٍ، فحذَّرها من الزواج، وأخطرها بالموتِ المُحتَّم السريع إنْ فكَّرت بالإنجاب.

وكان ذلك الطبيب الذي نَظر اليها بتعاطفٍ عظيمٍ وضعَ لها جَدولاً اسبوعياً يلقي عليها بَعضاً من الكلامِ ليقلِّل ثقلَ الخبر، ويُضئِّل من حجمِ غَمامةِ البؤس التي تُعتِّمُ نهارَها، ويطيحُ بأفكارٍ رماديةٍ قد تتنامى في رأسِها فتضغطُ على قلبِها وتُنهِكه.

تتراجع مع كلِّ خفقةٍ تتحسَّسها غريبةً على قلبِها فتهربُ في تفكيرِها إلى بساتينِ الطمأنينة. ترجو الوردَ أنْ يفعمها

بشذا الاسترخاء...إنَّ تلك اللحظة التي فارقت بها أمُّها الحياةَ وهي تردِّد أمامَ المتحلقاتِ حولَها في الغرفة الطينية وعطر ورودِ الدفلى يتسلَّلُ عبرَ النافذة:" هل سأموت؟ " لا تفارقها... ترى أُمَّها تنظر بعينين خانعتين تبغي تلقّي الاجابة من الحاضرات.. وبماذا تُجيبُ الحاضرات وكلّهنَّ نساءٌ متهالكات، فليس لديهنَّ غير الدموع ونظراتِ اللوعةِ يمطرنَها على الابنةِ الوحيدة؟

كان نديم يرجوها الاسترخاء وعدم الانشداد والتشبّث حدّ القلقِ بصديقه.. يقرأ الأسى في عينيها فيدرك كيف أغوت غانيةُ الشهرةِ صديقَه الرسام، وكيف امتصَّتُه مصابيحُ الأنوارِ فألقته في غرفةِ مرايا لا يرى إلّا نفسه أنّى نظر، وإلى أين اتَجه... يرى البِشرَ الذي كان في وجهِها ذوى؛ والألقَ المُشعَّ في عينيها العسليتين المتوهجتين تراجع. حلّ محلَّه بهتٌ وضباب. فصديقُه الرسام أباحَ له: "إنني موبوءٌ بحبّها، متولِّه بعشقِها؛ غير أنَّي أخشى عليها من جُرحٍ سيؤلمها طويلاً بمصارحتها أني أبحث عن نجاحي، عن قدري، عن سموي، وأنها تعيقني عن تحقيقِ مناي."

***

وكانت مؤجِّرةُ البيت تتعاطف معها. لا تدري أنَّ أولَ إزارٍ باعته كان أولَ خطوةٍ في طريقِ اللوعةِ والتهالك.. لا تدري أنَّ

مـديحَها والثنـاءَ الـذي أفضـته للنسـوة الـثلاث اللائـي فـتحنَ العيـونَ اعجاباً لمشـاهدة إزار بحياكـةٍ سـاحرة أسَـرَ احـداهن فابتاعته ليكون بادئةَ بدءِ اللوعة.

إنَّ الأقدارَ أقلامٌ ممتلئةٌ بحبرِ الحركـةِ، تصنع الأحداثَ وتسـيِّرُها كيفمـا تشـاء. قـد تُسـعِد قلوباً أو تُـدمي أُخَـر؛ قـد تشعل شمساً أو تطفئ قمراً؛ قد تصنع ذكرى تبثُّ أريجَ هنـاءٍ مُمتعٍ أو تصنع ذكرى تجعل السماءَ تمطر دَماً وتنثُّ أنيناً.

تتـذكَّر تلـكَ الليلـة البـاردة المُمطـرة وكيـف جُرِحـت وقـد شعرت بالاختناق، وشـاهدها الجّـارُ الـرحيمُ فهالـه مـا رأى ، ، هرعَ إليها يخاطبُها بأبوّةٍ وخوف: بنيتي، تجنَّبي المطرَ في مثلِ هـذا الجـو البـارد الصـقيع. المَطـرُ يجلـبُ الروماتزمَ اللعـين إلى العظام. يجلبه إلى القلبِ فينهكُه ويُضعفُه ويُمضُّه.

ولم تكن تأبَه؛ ولم تأخُذ بنصيحتِه مأخذَ الحقيقة، هـي العارفةُ بعلَّةِ قلبِها وضعفِه. لـذلك كانـت الأيـامُ الثلاثـةُ التاليـة تنصـرفُ وهـي ترتَجـف وتـرتَعش، وتسـودُها الحمّـى، وينـذرُها القلـب بـدنو حيـان توقفـه، وتعلمتهـا المفاصـلُ بتفكّـكِهـا واستدعاءِ الألم الثقيل لأيَّما حركةٍ، وإنْ كانت تتطلّب رفعَ الذراع أو امالةَ الجذع.

تلحُّ عليها الذاكـرةُ بالعودةِ الى الوراء، فتأخذُها الـذكرى إلى صورةِ الجَّد وهو يقطعُ السنوات الأربـع والسـتين، وينهض

بمعونةِ أحدِ الأحفاد، مُردِّداً: " أحسدُ قلبي على تحمّلِه ووصولِه الى هذا العمر." فيما صارت هي تردِّد في حالةٍ من الجزعِ ومحاولةِ الخروجِ من شرنقةِ ذكرى الجَّد وكلامِه: " ذهب العمرُ؛ والذكرى تقسو عليَّ.. أنا الآن وحيدةٌ.. ذهب الذين أحبُّهم. توارى الأبُ، وبعُدت الأُمُّ، وغابَ الحبيب."

تعود اليها حادثةُ فقدِها لأخيها سعدون وزوجته بانقلابِ سيارةٍ كانت تقلّهما ومجموعة من الركّاب من فوقِ جسرٍ متهالك، وكيف شعرت يومَها بوجودِها وحيدةً في المدينة، وأنْ لا عودة لقريةٍ قدِمت منها، وأنَّ عليها السيرَ على الجَّمرِ وتطبيبِ الجِّراح يوماً بعد يوم كي تستمر في الحياة استمرارَ مَن يناضل فلا يستكين، مُرددةً: "إنَّ الحياةَ لزمنٍ يجب التعامل معَه وبه تعاملَ المؤمِن برسالةٍ انسانيةٍ مُقدَّسةٍ توجِب المواجهةَ وعدمَ الانكفاء."

صحيح أنَّ رحيلَ أخيها وزوجته تركَ جُرحاً غائراً في قلبِها، وخلَّف فراغاً واسعاً فرماها وحيدةً في هذا البيت المتواضع إلا أنَّها صمَّمت على عدم السماح للقدرِ سلبَ حياتها. لذا فكَّرت بالعيشِ وحيدةً في صراعٍ معه، حاثَّةً طاقتَها، مُفجِّرةً ابداعَها، مُعلنةً أنَّها خيّاطةُ إزرٍ ماهرة. خِياطةٌ ستكون مِهنةً توظّفُها للعيشِ فلا تفكّر بالعودةِ الى القرية وإنْ هي لَّما تزل شابَّةً قد تطالُها الألسنُ لبقائِها وحيدةً بعمرٍ

على اعتابِ العشرين أو قد يطمع بها ويستفردها ذوو النفوسِ الطامعة فيعتدون على عفَتِها... "لكن هذا لنْ يحدث.. لنْ يحدث بتاتاً.. أنا أملكُ قيادةِ نفسي اعتماداً على تربيةٍ تلقَّيتها من أهلي، وثقةٍ سقاني بها أخي طيلةَ حياتي معه في هذا البيت كفيلة بالعيشِ واثقةَ الخُطى فأمشي مَلِكةً تطأطئ لها الرؤوسُ احتراماً.

تعودُ إليها رجاءات الجدّة وتضرعُها:" لا تذهبي يا ابنتي وتتركينا. فيك رائحةُ ابنتي / أمكِ التي برحيلها وهي شابة طعنتني في الروح طعنة لم تمحُها الأيام .. حياتك هنا في القرية أهدأ. والذي حصلَ لأخيكِ ما كان سيحصل لو بقيَ هنا بين بيوتاتنا الوديعة."

لكنَّ هذا الكلام تبدَّل في رأسِ الجَدَّة عندما اكتشفت اصالةَ حفيدتِها في الالتصاقِ بسعدون وزوجته في المدينة وزياراتها المتكرّرة إلى القرية، وطبع قبلةِ الطاعةِ على كفّها، والترحم كثيراً على أمِّها التي رحلت ولّما تبلغ العام السادس... وزادَ من اطمئنانِ الجدَّة اتقانُها لحرفةِ صِناعةِ الإزرِ التي تعلَّمتها وصارت مهنةً تمارسُها.

تسألُها المؤجَّرة بانكسار:"أنت تذوين، يا ابنتي. وذواؤك يؤلمني. هل تشكين ألماً؛ هل تعانين من عارضٍ يعاودُك بين وقتٍ ووقت فيُنهِكُكِ؟.. أأتعبكِ الحنين للقرية والأهل

وتجدين صعوبةً العودةِ اليهم؟.. قولي ولا تكتمي."

عزَت نحولَها لانهماكِها بالعمل من جهةٍ وضعفِ شهيتِها للأكل من جهة ثانية.. وكانت تُطمئِن المؤجِّرةَ أنْ ستستعيد صحَّتَها في قابلاتِ الأيام.

لكنَّ الأيامَ القابلةَ افصحت للمرأةِ تدهورَ حالِ الفتاة؛ فاستدارةُ الوجه تراجعت لصالحِ الاستطالة، والعينان الوسيعتان انحسرتا تاركتان لونَ الرماد يتسلَّل اليهما. أمّا الشفتان اللتان كانتا مُكتنزتين فقد ضمُرَتا وتشقَّقتا بينما الوجنتان برزَ عظميهما، والعُنقُ صارَ علامةً لا تقبل الشكَّ على تدهورِ حالٍ واعتلالِ صحة.

صارت المرأةُ المؤجرة تخشى عليها مِن مرضٍ قاتلٍ لا تشعر به، تسلَّل الى جسدِها فراحُ يمارس الفتكَ المُهيمن.

وكانت نبيلة صادقةً في ردّها على المرأة المتطيرة والمتهجسة أمراً لا يمكن السكوت عنه.. إنَها تَصرفُ ساعاتِ النهارِ والكثيرَ من ساعاتِ الليل مُنهمِكةً في الحياكة. ما أنْ تُنهي انتاجَ إزارٍ حتى تعدُّ العِدَّةَ لإنتاجِ آخر. لكأنَّها في سباقٍ لتلبيةِ طلباتِ زائراتِها اللائي يبغينَ المزيد.

وكان الرسَّام في العاصمةِ يعيش الزَّهوَ، ويجيبُ على أسئلةِ الصحفيين والاعلاميين وهم يلتقونه منشدّين بإعجابٍ لما يفوه به مِن جُملٍ وعبارات تشكِّلُ نَسيجاً ثقافياً فنيّاً عن

تنظيرٍ يوشكُ أنْ يكونَ مدرسةً توسَم باسمِه.. وكان كلّما تلقّى اتصالاً هاتفياً من نديم ورجاءَ أنْ يأتي لزيارةِ المدينة ويُعلِمه بانتظارِ نبيلة له اعتذرَ متعلّلاً بانشغالاتٍ تخصُّ دراستَه وفنَّه مثلما كان يبرِّر لحزين عندما يتصل به من البصرة ويعاتبه على تجنّيه، ضاغطاً عليه بضرورةِ تلبيةِ رغبة مَن أحبته.. يطالبُه بالمجيء ليقدّم اعتذارَه لها، ويوضِّح الضغوطات القاهرةَ الحائلةَ دونَ حضوره.

ولقد اتَّخذَ حزين موقفاً سلبياً منه بعدما عرف حيثيات العلاقة بنبيلة.. وجدَهُ يتجنَّى على نفسِه فيسقِطُها في بئرِ الغرور، مأخوذاً بهوسِ الأضواء.

وبسبب من الحاحِ نديم قدم حزين من البصرة لملاقاة نبيلة.

زارها في بيتِها، وأطلعها على قصَّته مع حمامة، وكيف كان يزورها في هذا البيت.

قال لها:" هنا كانت حمامةُ تجلس؛ وهنا كانت ترقُد.. وفي الغرفة المجاورةِ كنّا نكتبُ ما خلَّفته عمَّتُها على اشرطة الكاسيت تحكي حبَّها لوليد.. وهنا كبُر حبُّنا واختتمناه باقترانٍ أفضى بنا الى حياةٍ سعيدةٍ وهانئة. وكان صديقُك الرسام هو مَن يُبدد آلام العشق الذي خلقته لي حمامة؛ فكيف تجنّى عليكِ؟!.. إنّي لفي حيرةٍ وجزع ! .. أكاد لا أُصدِّق ما يفعل، وما يرتكب من خطيئةٍ بحقِّك.. كان أنا

فكيفَ أصبحَ غيري؟!!"

تدفَّق الاكتئابُ على قلبِ نبيلة لحظةَ انتهاءِ كلامِه.. دمِعت عيناها. خواؤها وارتباكُها لم يسعفاها على الشكوى. وكانت فعلاً تريد أن تشتكي لحزين، وتسأله:" هل علِم أنَّني مريضة؟"

يبصرُ حزين اصفرارَ كفَّيها؛ يشاهدُ نحولَ اصابِعِها... يشاهد ذبولَ العينين ونحولَ الرقبة. يقارنُها مع تخطيطٍ أولي للوحة كان وعدها صديقه الرسام بإكمالِها وجعلها بالألوان.. أرادها بورتريت يؤشِّر لعلاقتهما.(قال له في رسالةٍ حملت عبارات البوح بالشغف وأظهرت حبّاً حسبَه حزين سيكون سرمدياً بين فنانٍ وفنانة: أُريدُها بورتريت، يا حزين، يؤشِّر علاقتَنا. أُريدُها قرينةً لي في مشوارِ ابداعِنا الفني المشترك.).

لكنَّه لم يُكمِل انجازَ مشروعِه.

تركه تخطيطاً أولياً.. وتركَها تجترُّ الأحزان وتنتظرُ حلمَ حضورِه.

ذلك هو التيه الذي يجرُّ البشري إلى هوّة الضياعِ وسلوكِ دربٍ يختطّه كالحالمِ، كالمُخدَّرِ، كالأعمى وهو يتَّخذ درباً لم يسلكُه مِن قبل، ولم تجوسه حواسُّه الأخرى وترسمه في ذاكرتِه الدفينة... إنَّ هيمنةَ القدرِ وتأثيرَ سحرِه

لكفيلةٌ بإبعادِ أغلى الأحباب عن وسطِه وجعلُه فاقدَ أغلبَ الحواس؛ فلا نصيحة يتقبَّل، ولا لوم يتحمَّل.. لا يرى، ولا يسمع. فقط ما يتلمس من غيمةِ القدرِ وهي تقودُه بغوايتِها صوبَ تخومِ الوهمِ الخادع، والخيلاءِ الزائف.

في التخطيط كانت نبيلة بوجهٍ دائري وعينين وسيعتين مستديرتين... قال حزين في سرّه :" إنَّها تشبه لوليتا."

أرادَ أن يقول:"أنتِ لوليتا فكيف تجنّى عليكِ وابتعد؟!.. كيف تركَك للعِلَلِ واكتفى يعاقرُ شهرةً خلقتِها لهُ فاختطفَها؟.. موهبتُك جعلتهُ نجماً فنيّاً ارتقت به إلى مصافي الفنانين الكبار."

في المرّة الثانية التي زارها حزين صحبةَ نديم هالَه رؤيتها تذوي، وعينيها تفشيان ذبولاً يشبه ذبولَ مَن تأتيه عربة الموت لتقلَّه بلا انفاس.

عابَ عليها تهالكَها، وأغرقَها بعتابٍ يفضح رغبتَها في تعذيبِ نفسِها.

أكَّد لها أنَّ بمقدورِه اعادةِ صديقِه الرسام إليها.. مؤكِّداً سيعود لأنَّ الشهرةَ لا تدوم، والأضواءَ مَحالٌ استمرارِها تنثر الوردَ إلى الأبد.

أطلعَها على صحيفةٍ كانت صفحتُها الفنية تحتفي بفنانٍ تشكيلي جديد شرعت الأضواء وعيون الكاميرات ولاقطات

الأصوات تتوجَّه صوبَه بينما صديقهم الرسام صارَ في الخَبرِ الثاني.

قال لها: "وسيكون خَبراً ثالثاً ورابعاً، فمسيرةُ الفنِّ لا تتوقَّف وزورقُ الشهرَةِ لا يرسو عند مرفأٍ فلا يفارقه.. إنَّ المالَ والشهرةَ والأضواءَ محطاتٌ بينما قطارُ الزمنِ يمرُّ ... صحيحٌ أنَّه يتوقَّف في محطةٍ؛ لكنَ الصحيحَ أيضاً سيخلّفها باتِّجاهِ مَحطاتٍ أُخر... لذا أرجو الاعتناءَ بنفسِك؛ فأنتِ الفنانَّة التي يبقى فنُّها خالداً؛ وما تُنتِجيه يستحيلُ تراثاً تنظر له الأجيالُ القادمةُ بعينِ الاحترامِ والتبجيل."

طالبها بتمزيقِ ثوبِ الحزن المُسربِل لقلبها الذاوي، ورجاها استبدالَ العلَّة بالمرحِ والانفتاحِ على الحياة مثلما حثَّها على الاستمرارِ في التعاملِ مع الطبيعةِ وانتاج الجمال المقرون بشجرةٍ قربَ ساقيةٍ أو عصفورٍ على غصن... أكَّدَ عليها الاستمرار في رسمِ الغزالات برهافتِها ودقَّةِ اعناقِها والظباء بتلك القرون التي تميّزها مخلوقات تُثير الاعجاب.

"ولكن آآآه، يا حزين، لا تلمني. لا تُزِد في نصائحِك؛ فالذي حدثَ حَدث."

كانت تريد البوحَ:"إنَّ قلبي كتلةٌ من وهجٍ آيل إلى الانطفاء، وإنَّ روحي شمسٌ آخذة بالذواء. قبلُك عرضَ نديم النصيحةِ لكنَّ القلبَ طفلٌ عنيد؛ كلّما تعالت النصائحُ زادَ

عنادُه. كطفلٍ يصرخ:"سيأتي؛ لا يقدِر على بعدي.. سيأتي.إنَّه ذو قلبٍ عطوف. كنتُ أُشاهد أصابعَه ترتعش وهو يمرِّرُها على وجهي؛ وكانت شفتاه تختلجان.. فنُّه شهادةٌ لنجاحه؛ وحبّي لافتةٌ تُعلن أننا حبيبان... أقدِّر تعاطفَك ونديم معي، لكنّي أيضاً أقدِّر خفقَ قلبي عليه، وشعوري أنْ سيأتي مُعتذراً خجِلاً.. سيأتي... سيأتي لا محالة."

لا تريد القول بخيانته؛ والخيانةُ كما هو معهود، ليست من خِصال الشرفاء الأنقياء.

لا تريد الاستفهام على حكمِ مَن يطعن الحبيبَ بسكين الغدرِ ووسيلةِ التعامل مع غادرٍ أغوته بهرجةٌ مؤقَّتةً وزائلة .

عادت فكررت بذواءٍ ووجع:" أقدّر خَفقَ قلبي عليه، وشعوري أنْ سيأتي معتذراً خجِلاً."

تركت روحَها تتدفَّق شوقاً وتُمطِر دموعاً، وترتعش:

"سيأتي.. سيأتي لا محالة."

لكنَّه لم يأتِ.

استمرَّ في غيّه.. داومَ على حصادِ النجاح، فثمِلَ، وتاه، وانغوى.

وظلَّت تُقنِع روحَها بمجيئه يوماً بأحجارِ الندم والاعتذار وهي تُثقِل كاهلَه.

ظلَّت تحلم بعودته.. حُلماً بعد حلم.

في أحدِ الأحلام كانت تجلس أمامَ النخلةِ الناهضة وسط الحوش، تلك التي زرعتها العمَّة مريم يوماً ما، وقد تجاوز الليلُ نصفَه الأول. تحاورها النخلةُ بحنانِ أمٍّ وتواسيها في محنتَها.. تقول لها: " الزمنُ جبّار لا يعدُل. يهبُ ما يشاء ويحرمُ ما لا يشاء... وها هي مشيئتُه تتجلّى لكِ.. تهيئي لقدومِه."..... ولم تمر لحظات حتى طُرِقت الباب. رأتهُ يقف شاحباً. عيناه تفضيانِ بندمٍ، وشعور أنَّها على حقٍّ عندما اخبرته أنَّ الشهرةَ غير دائمةٍ، والأضواء ستنتقل إلى رمزٍ آخر، وما الدائمُ له إلّاها.

بكى بحرقةٍ وأخبرها بشهرٍ مرَّ ولم يؤتى على اسمِه بخبر.

قال أنَّ أقلام النُّقّاد اتَّجهت الى فنانٍ آخر؛ وعدسات الكاميرات ما عادت تجمعه لتعرضَه فناناً أثيراً.

بحنوِّ الأمهاتِ الطعينات من فلذّاتِها تمرّر كفَّها على وجهِه؛ تمسح دموعَ الجزَع وتغدق حنانَ الطمأنينة فيما طفقَ يستجمع الكلمات ليعتذر ويُقِر بخيانته. يُقرُّ بجنايةٍ على مخلوقٍ كان كالمطر يُلطِّف يبابَ أيامِه عندما تبدَّد الحلمُ على دموعٍ كانت تنساب على وجنتيها؛ وتكتشف أنّه ما زال يمارس فعلَ القسوةِ على قلبها. فانكفأت تبكي بمرارةٍ وتسحق روحَها برحى الحزن.

يعود إليها ذلك المشهد الذي يتجلَّى عبرَ المدِّ الذهبي لجيشٍ

من السنابل اللميعة بتأثير ضحكاتِ شمسِ الضحى، وبريقِ قطرِ الندى الآخذ بالتبخّر، وترى هي كبدرِ البدور تقف خلفَ نافذةِ غرفةِ البيت المُشيَّد من اللبن، والمسقوف بجذوعِ اشجارِ القَوَغِ المحمولةِ من غاباتِ شمالِ البلاد.. تُطالِع غزالاتٍ نافرات وظِباءَ تكرع الماءَ من مجرى الساقيةِ الرئيسة تخترق بستانَ جدِّها وتتفرع إلى سواقٍ بين انساقِ النخيل السامق فتُرَحِب بها شجيراتُ التين والرمّان، وتُعلِن صفوفُ شجيرات المشمش استقبالاً تنشرح لهنَّ نفوسهن فيتدفَّق الماءُ تدفّقَ الشوقِ واعلانِ السعادةِ في الرواء.

تواصل تقبّل الحزن، وتستمرُ في البكاءِ وإنْ أخذَ تلك اللحظة شكلَ الصمت.

تغيب الكلماتُ، وتهربُ الأفكارُ التي تقدِّم لها النجدةَ وتفتح مَغاليقَ النجاة.. تستعينُ بالنومِ كي يبعدها عن عَذابِ الجَّفاءِ وثقلِ النوى؛ فالنومُ يغدو أحياناً عاملاً فاعلاً يحملُ بين ثناياه الراحةَ للإنسانِ الطعين بغدرِ الأحبّة، ويبعده عمّا هو بغيضٌ من أوجهِ الحياة... يبعده عن تخيّل غمامات الكَدر تأتي به قادماتُ الأيام.. يُبعده عن غَدرٍ يرتكبُه مَخلوقٌ بمخلوقٍ تصوَّره مَلاكاً فإذا هو صورةٌ متماهيةٌ لذئبٍ غادرٍ يتلبس هيئةَ الملاك.. تقول في سرِّها: "كيفَ لفنّانٍ يُفتَرَض أنْ يكونَ مُرهَفاً يَستحيلُ ذئباً؟!.. كيفَ لفرشاةٍ ينبغي أنْ ترسمَ

الشِّعرِ وتقولَ القصيدة المُغناة فإذا بها تَصنعُ خَناجرَ تملأ اللوحةَ؟!.. لِمَ أغفلَ حكمةَ "يومٌ لكَ ويومٌ عليك" فتعالى على الحقيقةِ وسلكَ طريقَ الوهم؟!

تَتهافتُ الأسئلةُ؛ ويتعمَّقُ الحزن.

تتماوجُ الدموعُ هادرةً على الخدَّين. تشعر أنَّها حسناً فعلت في إزارِها قبل الأخير، ذلك الذي حاكته واحتفظت به عندما جعلت الغزالةَ تدير عنقَها عن الظبي المتباهي بقرونِه المتشابكة وهو يَعتلي رابيةً: متخايلاً، متكبراً، ودفعتها إلى التطلّع نحو السهلِ الأخضر، والانصات لخريرِ ماءِ ساقيةِ البستان.

تلك اللحظة تناهى لمسمعِها صوتُ مفتاحِ البابِ الخارجي يُدار فأدرَكت حضورَ نديم لزيارتِها؛ فهو الأكثرُ حناناً عليها، وتفقُّداً لها من المُجافي الموهوم بالبهرجة. فساورتها لحظةُ ارتياحٍ، وهطلَ عليها مطرُ الطمأنينة ما جعلَها تُعلن السعادةَ لقدومِه.

ولم يكن وحيداً هذهِ المرّة.

هذه المرة جاء ومعه خبر عودة صديقهما الرسام عن قريب ليعيشَ في المدينة بعدما عبثت به الأيامُ فبدَّدت الهالةَ التي حوله.. هذه المرّة ستكون عودتُه طويلةً، إذ اكتسحَ الجزعُ روحَه؛ وتناهبت رأسَه جرثومةُ السقوطِ المدوّي الذي حصل

جرَّاء تواريهِ في الظل.. فالسقوطُ مُفردةٌ لها فعلُ تخَيُّلِ انتفاءِ الحيلة في موقفٍ يتمثل فيه حكمُ الاعدامِ بإدانةٍ ثابتة لا مَخرج منها. والسقوطُ انهيارُ جبلِ الكرامةِ في منحدرٍ سحيقٍ، وغائمٍ، وعتيم. والسقوطُ لا قبول لندمٍ على سوءِ فعل.

لقد قُضيَ الأمر.

لقد قضي الأمر عندها؛ فلم تَشهق دلالةَ المفاجأةِ الآيلة الى البهجةِ، ولم تبتسم تعبيراً عن سعادةٍ انتظرتها فقدِمت.

فقط طأطأت الرأسَ، وكلَّمت قلبَها العليل: "لا جدوى من البقاء؛ والقرارُ الذي اتخذته لا رجعةَ فيه."

وإذ رفعت نظرَها اقترحت :

"يُفترض به البقاء هنالك في العاصمة؛ فهنا يغدو هامِشاً.. العودةُ إلى هنا إعلان موتِه الفنّي."

"لكنكِ ستكونين مَعه تعاضدينه".. جاءها صوت نديم.

"لا.. لا.. سيكون لوحدِه."

"ماذا؟!.. إلى أين ستذهبين؟!"

"أرضُ اللّه واسعة. ولي فيها قريتُنا الجميلة، وزروعُنا، ومواشينا، وطيورُنا، والسماء."

"لكنكِ تعوَّدتِ حياةَ المدينة.. الرحيلُ سيكون قاسياً."

"ليس بأقسى من قلبِ صديقِك."

هل كانت على حقٍّ إذاً في قرارِها اعتبارِه جاحداً فيكونُ

تصميمُها بعدم ملاقاته تصميماً صائباً؟

***

وكان اخلاؤها البيت نذيرَ حزنٍ وأسى على مشاعر سكنةِ الزقاق، مثلما اشارةَ جزعٍ لَمن يدرك قيمةَ طاقتها الابداعية الفنية.

جعلوا الأمل يحدوهم في مواصلةِ ابداعها من هناك، من قريتِها، عشّها الدافىء، الهانىء الجميل.

لم يدركوا أن رغبتها في العودة الى القرية تشبه ذلك الحنين الذي يتفجَّر في النفس البشرية المُخمِّنة أنّها سترحل رحيلاً ابدياً فتطالبُ حاملَها اعادتها الى العشِّ الذي نمت ونشأت فيه، ورأت من حافتهِ ثمَّة حياةً كبيرة خارج حدودِه. فالبشريُّ كباقي المخلوقات ما أنْ تدنو منيته أو يشعر بالهوان حتى يروح ينزوي وحيداً، لا يهمّه ما حوله. فيتوارى خلفَ حجبِ الصمت.

وها هو الفنانُ الرسام الآن يعيشُ القلقَ والحزن.

يَجترُّ لياليه بَعذاباتٍ تتوالى، وتأنيبِ ضميرٍ لا يَشفى منه ولا يَزول. يَصرفُ لياليه مُخدَّراً. يستعينُ بالقلمِ والأوراقِ البيضاء، وقد امتلأت بتخطيطاتٍ مُتعدِدةٍ لوجهِ فتاةٍ واحدة عَكَّرته قَطراتٌ تشرَّبها، يُخيَّل لَمن يطالعُها أنَّها قَطراتُ ماءٍ سَقطت بعفويةٍ؛ لكنَّ الصحيحّ هيَ دموعٌ الرسّام تقاطرت

اثناءَ فعلِ التخطيط. فكانت عيناه معَ كلِّ جرَّةِ قلمٍ واظهارِ مَلمحٍ مِن مَلامح الوَجه تتضبّبان وأصابعُه القابضة على عنقِ القلمِ ترتعش؛ ومَعها يرتعشُ القلمُ؛ وبالإمكانِ سماع نشيجٍ مِن قَرارٍ لروحٍ يتألم.

إنَّه نشيجُ الندامى بموازاةِ آهاتِ المُعذَبين.

ابتدأت صباح ٢٠ مايس ٢٠١٦

انتهت صباح ٢٩ حزيران ٢٠١٦

روايات صدرت للمؤلف

(١) سبت يا ثلاثاء ٢٠٠٧

(٢) فراسخ لآهات تنتظر ٢٠١٠

(٣) أفراس الاعوام ٢٠١١

(٤) اسم العربة ٢٠١٣

(٥) تراجيديا مدينة ٢٠١٤

(٦) جاسم وجوليا ٢٠١٦

(٧) شارع باتا ٢٠١٧

(٨) السِّفرُ والأسفار ٢٠١٧

(٩) الليل في نعمائه ٢٠١٦

(١٠) الليل في نقائه ٢٠١٩

(١١) الليل في بهائه ٢٠١٩

The Night in its Upper

Novel

Zaid Al-Shaheed

يَهتمُّ أبطالُ الشَّهيد كثيراً بالمنغِّصات (العوائق بلغةِ الناقدِ الروسي بروب) ومعنى الاستسلامِ للقدر الغاشم الذي تَقول عنه شهرزاد هادمُ اللَّذات ومُفرِّقُ الجماعات. والواقعُ إنَّه بين هذه الرباعية وشهرزاد أكثرُ من وَشيجةٍ وصِلةِ قرابةٍ. فحكاياتُها تتطوَّرُ في الليل، وهو التوقيتُ الذي اختارُه زيد الشهيد لرباعيتِه. وهذا واضحٌ مِن العِنوان. ولكن لا تتوقَّفُ الصِّلةُ عندَ العناوين، وإنمَّا هناك أيضاً علاقةٌ في المَنطق أو البُنية.. كانت شهرزادُ تسلِّي المَلكَ الجائرَ بمجموعةٍ من القصص المتواليةِ، وتسمحُ لكلِّ قِصَّةٍ أنْ تتفرَّع فجأةً دونَ تمَهيدٍ، وأحياناً تحتلُّ القِصَّةُ الفرعيةُ مَساحةً أكبرَ مِن الأساسية. وقد اتَّبعَ زيد الشهيد هذا الأسلوب دونَ تردِّدٍ.

د.صالح الرزوق